كِيجِيمَا

الطبعة الأولى
إصدارات أحلام 2023
ردمك:

الكاتب: الدكتور مزوار محمد سعيد
عنوان الكتاب: كِيجِيمَا
تصميم الغلاف: إيمان عبد الحكيم
الإخراج الفني: أحمد الشافعي ملكي
تدقيق: مليكة رافع
المدير العام: أسماء سنجاسني

الناشر: دار أحلام للنشر
إيميل: editionahlem@gmail.com
هاتف: 0794813011/0698370013
شارع الإخوة بوحجة بلدية أولاد شبل بئرتوتة الجزائر العاصمة

جميع الحقوق محفوظة © لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

نصوص ثقافية

كِيمِيَا

الدكتور مزوار محمد سعيد

دار أحلام للنشر
MAISON D'EDITION AHLEM

ما بَين محاولة هروب جاكلين كينيدي بعد إصابة زوجها بتلك الرَّصاصة القاتلة، وحَرق بابلو إسكوبار للملايين مِن الدولارات بهدَفِ تجفيف شَعْر ابنته مانويلا، يتشكَّل عالمنا الأخير.

د. مزوار محمد سعيد[1]

[1] مؤلّف "قاتلي يتدرَّب في شيكاغو"

وتتواصل الحكاية، حكاية تائه بين دفات الأيَّام، باحثا عن المعنى، قادما مِن الضياع وسائرا على الجمر، هي حياة ذلك الفتى الذي يحاول بكلِّ ما يملك أن يجسِّد أملا على صفحات صحراء جرداء لا تقرأ، هي مقدرة على المواجهة بأخفِّ وأتفه الأسلحة، هي عتمة أرادت أن تنتصر على الإنسانية بأقصر وأطول الطرق، لكنها اصطدمت بالنبلاء، هؤلاء الذي يبذلون كلَّ ما بوسعهم مِن أجل الوصول، إلى تلك النقطة التي تضمن لهُم ما يرغبون فيه، سواء عند الضفة الأخرى، أو عند حواف قلوبهم الرقيقة، التي لا تعرف الانكسار، سوى كعامل يُقوِّي تلك الإرادات الرهيبة التي تسكنهم.

ولِد ذلك الفتى وراح يعشق الوطن والأرض، المبدأ والمنفى، السير على الشوك آملا في نهاية ترضيه، وهو الذي تجاوز حدود أحلام جيله، فسخروا منه وجعلوا من حضور اسمه بينهم بروزا لا يعرف التغني بما لديهم، ليحجزوا له أفخم النعوت السلبية في زوايا قواميسهم الفقيرة.

هي رحلة ولدت في قلب لا يعرف معنى الهزيمة سوى إن كانت محدودة في معركة، سوى إن كانت نتيجة ضربة مباغتة، سرعان ما يستفيق منها، ويعمل على إرضاء ما يحمله من شغف

تجاوز المعقول لدى عقول مَن هُم حوله، ليعطي زمنه وكافة أزمانه، لما يرنُّ بداخله كأجراس المشارق الأصيلة.

هو إنسان وُلد بصفة نصف إله، يعالج جروحه بخيوط الكلمات، استكان لما يغالب مرساة السفينة التي لم تبدأ بعد رحلتها الدائمة، فهُو لا يعرف الاستسلام، إلاَّ إذا كان صادرا مِن خصومه أو أعدائه، ولا يطرب لنجواه، إلاَّ إذا كانت تخرج مِن كهف فؤاده، ولا ينظر بعيدا سوى إن كانت حدود هذا البعيد هي الأفق التي تشارف على عدم النهاية.

هذا الفتى فيه الكثير مِن هكتور وهو يحارب دفاعا عن شرف النبلاء من سكان مدينته، والكثير من النبي محمَّد عليه الصلاة والسلام وهو يُخرِج أمَّة عظيمة من الرمال المتحرِّكة، والكثير من تشرشل وهو يقود لندن إلى سيادة العالَم الحر، وجانب من العربي بن مهيدي وهو يبتسم في وجه قاتليه، وزاوية من يوسف عليه السلام وهو في البئر وحيدا، والكثير من أمرؤ القيس وهو يسمع نبأ اغتيال والده، ونفحة من ابن رشد وهو يشاهد كتبه تُتلف بأيادٍ لطالما اجتهد لأجل رفعتها بين الأمم.

هذا الفتى أحبَّ كثيرا، فقد أعجب بمانديلا وهو يحارب العنصرية، وافتتن بغاندي وهو يقود مسيرة السلام، احترم أبناء

روسيا وهُم يواجهون النازية، قدَّر موقف أبراهام لينكن وهو يوقِّع على قرار إلغاء العبودية، وراح ينشد ما كتبه مفدي زكريا حول التصدي للاحتلال مهما كلَّف الثمن، كما أنَّه وقف وقفة إجلال واحترام لتشي وهو يحارب الامبريالية.

هذا الفتى فيه ما غُرس في داخله على أرض برباطة العريقة، وما حارب أجداده من أجله نصرة للوطن والدين، وما لقِّن على مقاعد الدراسة من مبادئ العمل والاجتهاد، وما علَّمته الحياة من فنِّ ورقي، ليصبح مرهف الإحساس، يحمل روح مقاتل ضد الظلم وعُمْق إنسان إن ما وقع نظره على مشاهد الفقراء أو البؤساء من حوله.

إنَّه صورة متطوِّرة عن أخيل وهو يبحث عن الشرف في زمن لا يعترف بالأساطير ولا المعجزات، يعيد ترتيب المعطيات والأحداث، يزرع على قارعة الحدائق الكثير من الورود محاربا قاطفيها عند الفجر، لينفث أمل الوجود على صفحات الأيَّام، لعلَّه يصل إلى تلك النقطة التي سبقه إليها النبي نوح عليه السلام، بعدما بنى نجاته ونجاة أهله بيديْه، ومحمد الفاتح الذي أهدى المسلمين الجسر الرابط بين الشرق والغرب.

يسقط الرجال في المعارك شهداء، فيُحملون بشرف إلى آخر ملاجئهم، إلى الأبدية، ثمَّ تزيّن بطولاتهم خيال الأجيال على اختلاف ثقافاتها، وتُرفع أسماءهم على جدران الشوارع أو أبواب الساحات، تقديرا لما بذلوه مِن أجل ما آمنوا به دون انتظارهم للمقابل، نعم؛ دون انتظارهم للمقابل مِن أحد... رحم الله الرجال أينما ثُقِفوا.

سكوت أنتَ في الجزائر! إذا ما دخلت هذه البلاد عليك بالسكوت، التزمه بشكل مطبق، وإن ما فكّرت بأن تفتح فمك، فإنّ الهراوات الروحية والجسمية ستنال منك، فتصبح نادما على كلّ خطوة وعلى كل كلمة قلتها، لدى عليك بالسكوت، أيها المتكلم لا تتكلم سوى مديحا أو اسكت، لقد عاش الجميع بين الجميع وهُم يحاولون صياغة عالمهم من حولهم، لكن! في الجزائر الأمر مختلف، فالجميع لا يفهم الجميع، وإنّما يحاولون بعد التيقن بأنّهم مقدسون جدا، يحاولون فتح جبهات عليكم ليكونوا في أحسن أحوالهم ولو لم يطابق هذا كله الواقع، أو بشكل أدق واقعهم.

لقد علّمونا أن نسكت، أو نقول ما يقولون؛ الابداع لا يكون مستحسنا على أرض الجزائر، لهذا قلِّد أو اسكت وإلاَّ ستكون

مجنونا منبوذا، ما هذه الحياة التي ولدت من رحم لا تتصل بالجميع؟ ما هذه الخيبة التي ولدت من نتائج الفرحة؟ الأمر لا يصح ولا يمد ذراعيه للمقبول، كل ما يحدث هو أنَّ البراءة قد تعلّمت كيف تثابر بعيدا عن الجماعة، تعلّمت كيف تكون لوحدها فوق ذاتها وفقط، لهذا يكون من الضروري أن يصبح الإنسان باحثا عن رسالته، لأنَّ روح البحث كفيل بأن يحرر الجميع، وأنّ الكلّ له حفنة إيمان على حساب الظن والعمل، فيكون الكلّ من هيبة الأفراد، ومن سلطان متعالي.

صولجان القمة يلمع في الجزائر، لكنه ليس جزائريا، هو يتدلى من جيب الضيق ومكر الدهاء، ولطالما تعوّد الجزائريون على السكوت، لدى كانت كلمات من قبيل الهجاء أو النقد، هي كلمات تهتدي إلى أن تجعل الأفراد تكاد تنفجر، في لغم واضح المعالم، وتراتب ميسور الحال، يكون من الهام جدا، أن يؤسس الفرد لأن يصير هادئا، على أرض أبناؤها تعلّموا الموت قبل الحياة، على أرض مليئة بالخير، لكنها لا تهب شيئا لمن يولد شريفا طاهرا.

ما الفرق بين قرصان النفس وقرصنة الروح؟ لا فرق سوى في الوظيفة والتعدين وتراجع الترتيب، لن يكون من السهل فهم أنّ الإنسانية لا تجعل قوالبها مسرحا للساكتين الخانعين، حتى بين

الأجيال ذاتها يُنبذ السكوت للغاية، لكنه يبدو من الجيد أنّ الإنسان لا يزال على أرض الجزائر في صراع دائم، ليظهر الصراع في صورة المجرَّد الذي يكون مبجلا عند الإنسان، يكون أهمّ ما يمكن أن يبقي الحياة متصلة بحياتها لديه، لهذا يصبح الصراع حياة في كافة الأحوال، يصبح من الضروريّ أن تصارع فقط لأنّك جزائريّ ترغب في الحياة.

قد تأتي مكالمة شرعية إلى أذنك وهي تدرك أن الشرعية أمامك أصعب بكثير من أن تسترجعها بمكالمة واحدة، قد يكون ذلك من المهم جدا، أن تردّ وتقول: نعم! للشرعية؛ ونعم لذاتك التي تفقدها بين آلات صناعة هدوء حبك المسجى برِيق الأثير الذي يجعلك مضطرب الروح وأسير حياتك.

لم يعد للجانب الذي يريده الإنسان مستعصيا عليه، إن ما تعلَّق بما هو فيه وبه، فليس من المعقول أن يكون الإنسان مبرمجا على الأخذ دون العطاء، كون ما يحدث له هو أمر لا يمكن أن يكون سهلا، على أرض الساكتين، عليك أن تتكلَّم، وأن تعبّر، وأن تكون أنت في كافة الحالات والمواضع، أن تعيش كما تريد، رغم أنَّ إرادتك هي التي تُستهدَف إن ما بقيت ساكتا، لهذا الكثير من الجزائريين حلَّ الصمت محل السكوت عندهم، والباقي انقسم بين

المصارع الذي يصرخ من الألم ويتابع المسير، والطرف الثاني الذي مات قبل أن يترك أيّ تعبير.

أن ترسم مأساة يبدو من أهمّ ما يمكنك أن تعتبره مستساغا ومغايرا لما يحدث، وما سيحدث، لأنَّ الإنسان يرحم ما يمكّنه من الاستناد على ترابٍ خاصيته الأولى والأخيرة هي الابتهاج للعسير.

لطالما كانت الحياة التي يعيشها الإنسان هي الخيار الذي يجعله أقبح مِن مأساته، أنا ضائع يا عالَم، أنا ضائع تماما، حيث لا أعرف مَن أنا حقا وما الذي أريده بين كلّ ما يحدث لي مِن معوقات وتغيرات من حولي، لا أجد الأمان في أيٍّ مما أفعله، ووفق ما أقوم به، حيث يكون عليَّ أن أموت بسبب ما يحدث من حولي، وهو أمر صعب علي للغاية، كل الأمور تنفلت مني وكأنني التائه بلا عنوان وبلا هُوية.

من أين يولد الجميع إن كان التغريد حراما على الناس وحلالا على شيوخهم؟ كم صار الأمر صعبا والحياة تحيط بنفسيتي التي تهترئ بشكل جحيمي، هي قضية ارتبطت بالمصير بشكل لافت، هي علامة تجعل الفرق غير واضح بين ما كنت عليه قبل زمن، وما أنا عليه من بعد هذا الزمن؛ أنا ضائع يا عالَم.

أدرك حجم الرهانات وما أنا عليه من ظرف خطير جدا على أيامي، لقد خسرت كل ما بداخلي من أجل البحث عن نقطة هدوء، لم يعد بمقدوري الاحتمال حقا، صرت بلا روح، في زمن تفنن فيه الإنسان في قتل الأرواح والشرب من ماء مسحوقها بشكل لافت، مَن أنا؟

لن أقول إنني مؤمن بعد اليوم، لن أقول إنني على وجود أبدا، لأنني صرتُ بلا موقع وبلا مورد، حتى مواقفي الأخلاقية اختفت، حتى مواجعي صارت أكثر من مؤلمة، لقد وهنت، الدنيا ماتت في أحلامي، وكأنني شبه إنسان؛ إلى هذا الحد صار الإنسان شبه إنسان؟ كم عجبتُ من استعداد الناس للسادية بشكل رهيب! كم تألَّمتُ لذلك وكأنَّ الإنسان لم يجد أمامه سوى حلقات غمام لن تؤثر عليه أكثر مما هي تعمل على إعادة الأخذ بمبدأ ما هو مولود، ممَّا أصنع الأمان؟ أين أجده؟ ولمَن أوفره وأنا الوحيد الغريب في هذا العالَم؟

فعلا من الصعب أن تكون جزائريا في عالم يرفضك، لأنَّه ممنوع على الجزائري أن يحلم، أن يفهم، أن يحاول أن يكون إنسانا بمعنى الوجود والديمومة، ما أصعب أن تولد على أرض كالجزائر! صدقوني صعب للغاية؛ وإن ما حدث، فإنَّه سيكون

واجبا عليك أن توقِّع في كلِّ ثانية من حياتك على شهادة وفاة جديدة لك، لهذا عليك أن تموت كل يوم، على أرض مثل الجزائر، عليك أن تتجدد على ساحة الاعتقال الأبدية كل حين.

سيكون من المهم الأخذ بما هو مغلوب على أمره في هذه الأبدية الحية حين يصعد المختلف ليكون على قدر من الأهمية، بحيث يصبح الإنسان بلا حق، بلا علاقة بما هو حيّ، تكون أمام الإنسان خيارات عديدة للموت، في سبيل عدم تواجده تحت أيّ ظرْف من الظروف، لا يمكن أن يولد الجحيم من رحم النعيم، لكنه قد صُوّر لنا أنّ الجحيم الجزائري هو نعيم من نوع خاص، فصدقنا الكذبة منذ نعومتنا إلى غاية اصطدامنا بجدار الواقع الصلب، ما أحلى الموت إن كان هذا السبيل هو ما يمكّن الإنسان من علاج نفسه وفق علاقته بذاته.

أين الإرادة؟ أين الوجود؟ ما معنى الحياة؟ كلّ هذه الأمور تختلط بين جوانب عقلي، ولا أجد لها الحل المناسب، لأنَّه يُعتقد بأنَّ العالَم لا يتغيّر، كما درّسونا على مقاعد المدرسة الجزائرية، إذن! كل العجب من أمهات يرضعن أبناءهنّ السمّ بدل الحليب على الطريقة الجزائرية! لا لسبب سوى أنّهنّ أردن أن يكنَّ أوفياء

على الطريقة المسمومة وبشكل لا يهمّ ولا يهتم بالنتائج التي تلد كل يوم جرذا يقضم الزمن، العمر والحياة بلا توقف.

هل كان واجبا عليَّ أن أقدّم كلّ هذه الدموع في سبيل الحب والمحبة؟ يظهر من كافة المؤشرات أنَّ الإجابة ستكون نعم! هي الحياة المعنوية التي تجعل الفرد الإنساني مشتاقا لما يريده من طرفه المؤنث، حيث يبذل أقصى ما لديه ليكون ملتحما به، وهو يجسّد رسما جميلا في سبيل إضفاء الكثير من تأثيرات الأزمان والمادة على أمر يكفل سعادته بشكل عجيب، هي الحياة التي تسرح بأعماقها وقيمها بين الجميع، وكأنَّها قيمة متداولة بين العالَم دون إدراك محدود لما هو من شأنه تحديد المرجعية العميقة لكلّ مؤهَّل.

هناك قصص كثيرة عن موجود يُدعى: الإنسان، وهي أمور ترد في كافة الأزمان بشتى اللغات والألسن، فيصير الجميع على مقربة من متعهم بشكل يؤسس لما له صلة بعموميات الكون وتقريب المسافات، في حين أنَّ البعض يحاول ترقيم الصفحات لا غير، وتعود الأمور إلى مقتضياتها، ليصبح العمل على إنجاح الجميع أمرا مهلكا، ويسير العمر على سكة العربة الوسطى، أين يغامر المرء، ويصاعد من قدرته على تهذيب الكل، حيث يصارع

ويبرع في الصراع، حتى يجد متنفسا له بين النعومة، لينفض بعدها يديْه، ويسير على طريق متعرج، وكأنَّ الحياة هي ذاك الطعم الذي لا ينفيه الجميع، في حين أنَّه يؤثر على الجميع، لأنَّه يصبح من الضروريّ أن يغلب العمر عمره، وأن يجدد فؤاده، حتى يتمكَّن من السفر وإكمال المسير، فما هي أقل ولا أكثر من لغة شعورية، استقلَّت قدرتها عن مسارها الإنساني، وحميمية تقديراتها، حتى صارت كلُّ علامات الوجود، مرتبطة بالإنسان الجبان، لأنَّه أبَى أن يعود، أن تكون لكافة الموجودات عناوين، لكنَّه احتفظ بعنوانه، وكأنَّه أمر يستقي شرعيته من أسره لذاته، وهي كلُّها أمور تحدث، تحدث ثمَّ تعود للحدوث، ولا أحد يتمكَّن من شرحها والتعبير عنها بالشكل المُريح.

ما أغرب الإنسان وهو يحاول شرح إنسانيته، ما أغربه وهو يقذف إلى عقله جرعات غير متوازنة من أموره الشعورية، ومع ذلك هو يفعل، مع علمه المسبق أنَّ عقله وشعوره هما خصمان لا يقعان على المستوى نفسه من الحضور، فيكون له الحق، وكامل الحق في إعادة ترتيب الحياة، على حسب الرغبة في تركيع الصعوبات، وإقامة حوصلة تمكِّنه من إقامة حوار بينه وبين ذاته، ليصبح من السهل الركوع أمام الجموع، ليس من السهل التعرّف

على الذات البشرية كلَّ حين، ولا هو سهل أن تدرك أنَّ لك ذاتا تتعلَّق بما للإنسان من فتور، لكن وكما أنَّ الإنسان هو القالب العام للعالَم، القالب الصغير، فإنَّ له تقلبات وتضاريس، تصبُّ على الجميع احتمالات الأعاصير والعواصف، الشمس والظلام، بشكل قريب جدًّا من تكهنات الحسابات، وتدقيق الإشارات، ليصبح من الجيّد أن يكون الفرد، أقرب إلى ذاته الغريبة عنه، رغم أنّها في جوفه، وهي لا تتكفَّل بها سوى الإرادة الإنسانية ذاتها، ليصبح الإنسان لا-إنسان.

قطعة من يومي يمكنها أن تجعلني اعترف بحبي الكبير، ذلك الذي تسرَّب إلى روحي في غفلة نفسية عالية التخدير، فصار مناسبا لي أن اعترف أنَّني أحببتُ، وبشكل غير متوازن فعلتُ، حتى صار ما هو بالنسبة لي، أمرا غير قابل للشرح ولا للبوح، أمرا يتعلّق بي دون غيري، حتى تلك التي أحببتها صارت لا تفهم حبي لها، أو هي لا تتعرَّف عليه حين يلتقيها بين الثانية الوجدانية والأخرى، زمن ليس كالزمن، ومكان يلجّ بالعنفوان، هو النعيم الذي انسكب في وعاء العذاب، بلا أسباب، وبلا ثواب، وكأنَّها أمور تحدث، فقط لأنَّها تريد الحدوث، ليكون الصفاء هو الهناء.

يحاول الإنسان من أجل فتح صفحة جديدة من حياته صناعة دليل على وجود حياته داخل قاعِهِ، هذه اللحظة تمثل له نقطة نزول وحيه الفردي عليه، بحيث يكون واجبا عليه المرور عبر متجليات عديدة، وهو القادر على ترجيح كل ما مِن شأنه أن يجعله سعيدا، بين المقدَّرات كلها، وبين العلاقات كافة، يتبيَّن الإنسان علاماته ومفاهيمه، وهو الذي يرتكز على الإنسانية وعلى نواحي موجودة مهما كانت وكيفما كانت، حينئذ تكون الحياة مسردا ارتجاليا بجانب القَدَر المسجى بين كافة أضرحة الممكن، وعتمة الأسلاك التي تعادل تلازم الإنسان مع إنسانيته، وهي ممكنات لا تعادل في فحواها كافة الموجودات، لهذا وجب على الإنسان الأخذ بما له وما عليه من ارتكاز، حيث يقضي الجزائري كلَّ وقته في تبيان واستبيان المعطيات وحلِّ المشكلات، حتى صارت كافة تكاليف القدَر وتأثير العمر أمرا لا مفرَّ منه، وهي قدرة عجيبة على إعادة الترتيب والتوجيه، هي مسلك صعب لكنه مثمر، يربح فيه الإنسان ذاته، ويجعل من مستقبله عجينة تشكيلية تؤسس لكافة مكوناته بشكل جديد، خاصة أنَّ التركيز يختلف في الحدَّة بين الثانية والأخرى، وهي تحاول وفق أداة العلامات ومسترجعات الأمم وتأسيسات الممكنات، أن يكون له

حلاً في مواجهة الصعب، لأجل تعميد ما يمكِّن للممكنات من الحدوث؛ ففي لحظة النزول هذه، يصبح الإنسان مجمَّعًا للأفكار، وعلى فكرة، البقية تعلي شيئا ما مِن قدرة الإنسان على التفاعل والحضور، لأنَّ العلاقة العامة بين ما هو متواجد وما هو قابل لأن يؤسس وجوده هي التي تسعد بتوليد الأسس التي لها شأن عظيم بين مؤثرات التكاليف وحمولات التأليفات بشتى أنواعها وصيغها، وهي علاقة ضمنية تسرد على مسامع كل مرجعية مبادئ الاتجاه الذي يجعل الحياة أكثر سعادة، إذن ما هي السعادة؟

لا أدري لحد الساعة! لكنَّ الإنسان يحاول التفكير في أمر يدعى: السعادة، هذا الهدف الذي يجعل الجميع يبحثون ويجدّون في البحث عنه، لأنَّ الجميع دون استثناء هُم الذين يحاولون أن يكونَ لهُم حظ البقاء والوصول إلى مستلزماتهم التي استعانت بالوجود البشري من أجل تحقيق الغرض الإنساني، وهي علاقة تفيض بالكلمات والأماني، أي أنَّها لا تسرد أكثر من وجودٍ في الوقت الذي يصبح الفضاء بالنسبة للإنسان مجالا يحوي أكثر التعليقات والتباينات تأسيسا وترتيبا لما هو متواجد ومتراجع أمام تصاعد أزمات العالم والتكوين الذي يختلف من حادث لآخر، وكأنَّ ما هو قائم على تعميد الفكرة، حتى صار لا أساس له ظاهرا

بين جنبات الأحداث، هو ما سيكون لوما للوجدان بقدر ما هو سرد للمفاهيم وتراجع عن تصلب وسط كل هذه النعومة، وعليه هذا كلّه يشكل مسار الإنسان، فهي مسترجعات لئيمة في طريق الفرد، مهما كان الحال، ومهما كانت الأعمال التي يلتزم بها الجزائري، حيث يصبح الكائن البشري أكثر الموجودات تحرُّرا، وهي أكثر المتلازمات تأثيرا، لأنَّ الجميع سيسرد على مسامع الإنسانية ترانيم لا يفهمها سوى الوجدان الأزلي، وهي التي تخرج من الْعمق الخيِّر للإنسان، فلا يتمكَّن الفرد من فهم الفهم، ولا اقتراح ما يمكن له أن يفعل، أن يصبح سعيدا وسط ما يحيط به من ظلمات، عبر تأخيرات وتعجيلٍ في آنٍ واحد، أي أنَّ هذا وذاك لن يكون سوى الإنسان في حالات عديدة، وهي أمر مستجلب أمام ما يمكّن الأفراد من تعدين المسعى بشكل لا يقترحه أحد وفرض على أيٍّ كان، لأنَّ المسارات كلها هي الذات التي لا تفهم المفهوم، ولكن تلتزم به وتتوهم وجوده، فميسور التعادل بين الجميع، وهو ما يُمكن أن يجعل الإنسان في واجهة الجميع.

الدلالة الروحية هي التي تدفع الإنسان مهما كان انتماءه نحو كسب ما يريده من مقتنيات، سواء كانت هذه الأخيرة عبر جهده أو عبر التزامه بما يُمنح له، وهذه القضية تجد منفذا لها

بين الكثير من الثنايا اللغوية والفكرية، حيث يصبح الفكر بمكانة الاطار الذي يدفع بالفرد الإنساني إلى تبني القاعدة العامة لمشواره في الحياة، لقد حملت المرأة مع الرجل الكثير من هذه الدلالات المتعلقة بالأرواح، حيث كان لها الكثير لتقدمه وهي التي تجعل مكامن روحها بين لفائف روحه هو، أين يقع الرجل بين الغطرسة والرحمة، وكثير من الجهلة منهم رغم شهاداتهم وثقافاتهم المتبحرة، إلاَّ أنّهم يقعون فريسة سلطتهم الذكورية التي تصبغ مركزية الذات المعبّرة بواسطة العنف والاقصاء، حيث تكون المرأة هي الخاسر الأكبر في كل ما يمكن للنوع البشري فقده، هي مسألة تطعيم الذات بما يصعب فهمه، وهي قدرة على امتصاص الروح عبر استهلاك المشاعر والأحاسيس؛ هذه العلاقة الوطيدة بين الدلالة والوجود قد تأسست على الفقر المعرفي أو الثراء المنهجي، حيث يكون من نصيب المرأة مباشرة علامات التأثر بما يجري، لتسيل دموعها، لتندب حظها، بينما في الأصل لا علاقة للعيون ولا للأيام بما يجري، لأنَّ صاحب اليد الأطول هنا، هو ذلك الكائن الذي نصَّب نفسه وليًّا ووصيًّا على الكون دون غيره، فراح يصنِّف ويجسّد ما هو أسوَد من حقد وحسد في قلبه على أرض الواقع،

حيث أنَّها عملية آلية تلقي الكثير من الكوارث على الذات الذكورية قبل أن تلقي ذلك على المرأة كامتداد أصيل.

ما يجري من حولنا هو تجسيد لهذه الأفكار، حيث يبقى أوّل وآخر وأقوى عدو للإنسان، هو الجهل، وهنا علينا أن نضع الجهل في إطاره، كون أنَّ الكثير منَّا هو جاهل بجهل الجهل وعلومه، حيث تبقى الأمور ملتوية حول عصب المظاهر بينما هي في الأصل مجرَّد تعتيم حول قضايا تبدوا للوهلة الأولى أصغر مما يدَّعي الكثير من البشر.

ملامة الأشقياء تعبِّر عن لغة رفضها الكثير من الواضحين بين لغات العالَم وتجليات الإنسان، هي أمَّة تخضع لما له رصيد من الوهم والخيال، حيث يبدوا بداية أنَّ الاحتفال بالنصر قبل الانتصار لهو مجون الجنون دون غيره، لتكون الصفعة الظالمة أشدّ وقعا من صوتها على الروح، حين يتخلص الجميع من حياته، وتظهر صورة العالم من موضع الشر النسبي، وهي قمَّة الاحتيال على الذات/المرأة مهما بلغت القمة من تحديات وطموحات.

لطالما كانت الأعمال الفكرية المعبّرة عن قمَّة الإنسانية الممزوجة بمعاول الإيمان، فهي تقبع بجانب النقاط المريحة التي لها لغة المديح ولسان المبيت، مع ذلك فقد بدا للجميع أنَّ البشر

هـو القَـدَر الـذي ينتـاب الطفـل مثـل انتيابـه للعجـوز، هـو لقمـة تستسيغها الأمعاء بعيدا عن الأفكار التي تعبِّر عن التقدُّم وإعمال الموجـود، لكـن وبين كلِّ هـذا، هنـاك من يطالـب الإنسـان بالمزيـد، هنـاك من يـرى لغـات العـالَم غير كافيـة، حيث تبقى الموسـيقى غير قـادرة، ولا هي لغـة كاملـة، كمـا روى لنـا أوّل الطبيعيين الـواقعيين، ولا الروح هو المالك لتعبير جليل بعيدا عن الجميل.

هنـا يطرح التركيـب العـام للموجـودات لغـزا يحملـه الإنسـان باقتـدار، ويحـاول أن يشـرح مـا لا يسـتطيع شـرحه، وهـو العـالَم الأفضل من غيره، بحيث يعبِّر عن معنى غير مفهوم، هو غير قابل لا للشرح أو الإعمال، لأنَّ الحياة التي ضمَّت الجميع لتفقد معانيها، لها أساليبها المختلفة في تقدير الجزائريين، وتصنيفهم رغم ما يأبى من أساليب وما يحمله الكائن الفريد من عناد، هو التحوُّل الذي يشتهيه الإنسان، ويعمل ولو بالأمنيات على إقراره.

لا يجرؤ الإنسان على تحدي حياته، لأنّه يدرك تمام الإدراك بأنَّ ما يقوم به من باب العبث، وهي قدرة متفانية الوفاء إن ما أراد لهـا الحضـور، لقـد جـال الزمـان بمـا لديـه بـين متاهـات الإنسـان، وصـار البشـر عبـارة عـن كائنـات لا تجـد ملاذا لهـا، سـوى إن أرادت أن تزيل توازنها عبر الأخذ بما لها من معايير وفق ما تريده من جهة،

وما تجعله من معطياتها الخاصة والمحورية من جهات أخرى، حيث يصبح من العموم الأخذ بما للإنسان من معطيات تسترجَع كلها بين الكثير من مؤثرات المفاهيم وعلاقات الترقي من مستوى إلى آخر، وعليه يصبح من المهم جدا أن يكون الإنسان ذاتا لوحدها، ذاتا تجد معناها بين ثنايا الغرق المعنوي كلما صرخت بواسطة صوت العقل، لأنَّها لم تجد أمامها ما يجعلها تقدِّر أهمية الأساس الأوَّلي، الذي يمكِّن الفرد من إقرار جميع ممارسات الاستحقاق الذي يشمل النَّفس وتأقلمها بين الحيّ (مِن الأحياء) وغيره، فيكون من الأخف على الناس أن لا يشعروا بتواجدهم، بينما من يحاول استغلال كلمة إنسان حق ما لها من قدر، فإنَّه يصبح في آخر قاطرة تنتظر الفرصة من أجل قذفه إلى الخارج، وهي عملية لا يشعر بها سوى مريد وعامل على فهم وجوده، لكن! بطريقة تعِض روحه بشكل مريع، هذه القدرة على فهم الكثير من علامات التجلي، هي التي تجعل من العلاقة بين البشر أمرا لا يستحق الاهتمام بقدر اهتمام الذات بذاتها، وهي تأخذ كامل مصداقيتها من ظلام الليل ووضوح النهار، لأنَّها تعجِّل بجعل الناس يقفون في طوابير السعادة بشكل دائم ومريح، وهو أمر واقع ولابد منه، حيث يصرّ العمر على تخطي الأمور كافة، فتسير

المواعظ على رؤوس الأشهاد كما يحاول ذلك ما تبقى من علاقة بين الفرد وأزمته بشكل ملائم للغاية، خاصة وأنَّ مشكلة العالَم هي تلك العلامة التي تفصل الواضح بغيره، وفق الأقاليم النفسية المضطربة، وهو أمر لا يستسيغه أحد، سوى إن ما أراد الوصول إلى تقدير ما عليه بواسطة أمور لا قِبل له بمجاراتها، وهي فعلا أمور تكفي الروح لوحدها من أجل تسطير لججها ومساراتها، حيث يكون من المهم أن يلتزم العالم بإلغاء تمامه ومؤجلاته، فيكون من العام إقصاء المعالم وإعادة تشكيل أخرى في عموميات المسائل وتغريد المعاجم، من أجل صياغة ما هو هام ومطروح أمام كل مستلزمات العمل والإنقاذ، هي علاقة لا تهتم بما هو وارد في قائمة المسلك الطبيعي لأيٍّ من مسائل الأرض العميقة في كلِّ نفْس، فلا يصل إلى القاع سوى مَن له الحق في ذلك، وله القدرة على مواجهة ما يمكِّن الإنسان من التعامل مع الجزيء والواضح على أساس مقبول، وتراجع كافة المؤشرات وعقارب العدَّادات؛ فبكافة التفاصيل يضلُّ الإنسان طريقه، وبكافة المسارات يصبح على الناس أن يسيروا جماعات وراء قائد وحيد، بعدما يستقيلون جماعيا مِن الحياة، حتى ولو قادهم ذلك المتبوع إلى نار تستعر بأجسامهم، التي تتحوَّل إلى معدن قابل للصدأ من لحم ودم، وهي

قوالب لا تؤسس لأيّ ممَّا يمكن استقباله والتصدي له، من خلال عدمية وانجلاء الفهم البشري، لتكون السعادة والحياة لا تقلُّ في الواقع المعاش، عن أفكار تولد وتتوهَّج بشكل أغرب ممَّا يتصوّره الإنسان، حتى أنَّها هي التي تتحوَّل من موضوع إلى أداة تحرِّك كل موضوع إنساني، وهي قمَّة العلاقة بين الإنسانية ورجاء الخاطر الغابر بين براثين الأوهام والأحلام على حدٍّ سواء، أي أنَّ لها علاقات لا تجد صداها بين الروح إلاَّ ما تعلَّق الأمر في الجانب العريق دون الجوانب التي تتخذ من عمقها مرصدا ومرجعا لها، هي أمور لا يتعلَّمها الإنسان بعيدا عن مدرسة الحياة.

حالات عدم التعيين الذي يمارسها الفرد ويسكنها، أو رغما عنه يقع فيها، هي التي تمارس عليه ضغطا هائلا، لدى من المهم للغاية إعادة صياغة اللغة التي يحاور الإنسان بها إنسانيته، ويستعيد كلَّ ما يمكِّنه من أجزائه، من أجل إعادة صياغة روحه الملوثة من جديد، وبشكل أكثر نظافة ونضارة، هي مهمة صعبة جدا على من لا استعداد لهُم لذلك؛ ففي لطم عرَّاف الفكر، هي أمور تسهّل على الإنسان رصف ما يجده من أفكار، لأنَّه ببساطة! عقله الذي هو في جوفه، هو يطلب الأفكار ولو عبر التطفُّل والسرقة كما يحدث في الجامعة الجزائرية، حتى صار عنوان

الجهل هو: أقنعة العلوم والمعارف، وبهذا تصبح أمام الفرد الإنساني فرص كثيرة ترهبه وتحرق دمه القاني، فقط! لأنَّها تؤكِّد كل حين، بأنَّ ما له قد مضى، وما بقي هو أقسى.

هو الذي يصقل الفرد بما له من قسوة، حتى يصبح مستهلكا بالقدر الكافي، هذه المعاني لا تصدر عن عاقل، ولا عن جاهل، لكن مدعي العلوم والمعرفة يدّعيها بلا ضمير ولا مشاكل، خاصة وأنَّ الأمر لا يتعلّق بالظلام المضمر ضمن الأجساد، فلا يكون في الحياة أرق، حين تزغرد الأفكار بالمعنى، بالمعرفة بين كلِّ ما للجميع مِن تردّي، وهي حال جزائرية بامتياز، فشرح الموجود هو أمر لا يليق بأيّ متلكئ، ولكنه يسري وفق أمارات التصاريح النفسية، والتي لطالما كان لها المستوى الأعلى من ترنح الأنفس وتعامل المعامل الروحية كلها مع غيرها، حيث يثبت الفرد أمام الجميع، لأطول مدَّة ممكنة من مقاومته، لكن! لا يتمكَّن من الثبات أمام نفسه، لأنَّه لا يعلم ولو مع ذاته أنَّه قادر على فهم الإيقاع اليومي لما له من تصوّر عتيق، ولما له من تزاحم بين ثنايا روحه من تعطل وتصاريح، حيث لا يصدر القبيح عن جميل العطر والريح، هي متممة التداخل بين الجسد والحدس، ففي كلّ دقيقة هناك تسلسل للمعتاد، في حدّ ذاته هو متعارف عليه وغير

مجـدي، لكنّـه موجـود وفاعـل بـين نفسـيات حاضـرة على صحن الأيـام، وهي متلازمـات لا معموديـة لهـا بين أرق العبوديـة، وتعـاظم أيـام التعـاطف المحفـز لكافـة أسـلاك الصـعاب، إذن أيـن الثـواب؟ أين الواجب؟ أين الالتزام وتغيّر القرار بالإقرار؟

لا أحـد يملـك مثـل هـذه الأقـاليم النفسـية ولا يمكـن لأحـد توجيه اتجاهاتها، مع أنَّ التغيير كالمشي حافي القدميْن على سجادة الإبَر، إلاَّ أنَّه واقـع، وإن ما تأجَّل وقوعـه، إلاَّ أنَّه سـيقع، وهي كلّها وقائع تسترد مواقعها من عمود التتابع المعرفي بين حكمة الحكمة، وأحكـام الحكمـاء، خاصـة وأنَّـه غير متـاح لكـلّ النـاس، أن يبنـوا حيـواتهم على المرن من الأسـس، بل أنَّ هنـاك الكثير منها تتحرَّك، وبعبثيـة رهينـة الظـروف والمـزاج، المواقـف والتلاعـب، وهـي مسـتفحلة على أراضي القراصنة الجـدد، بشـكل يحفـظ الإنسـان وقـد لا يحفظه هذا الأخير، فمَن يدخل الأهوال وهو يرقب أعمال الناس وينسى تقديره لنفسه وتقويمه كما تقويمه لها، فإنَّه يبحث عـن مشـاكل لا نهايـة لهـا، ليرحـل عـن عـالَم الأحيـاء، ليس بجسـمه وإنَّما بروحـه فقـط، فيحـدِث انقسـاما واضحا في جسـده الكبير، وهنـاك مـن يسـترجع ذاتـه في الوقـت بـدل الضـائع، حـين يـرى بـأنَّ البـاب الـذي يريـده لا يبرهن عـن تواجـده، ولا يفـتح لـه جنَّتـه سـوى

إن ما قدَّم أجزاء من روحه كقربان، وما أغلى القربان على الإنسان! ما أغلاه، حتى صار بعيدا عن كلِّ حدث، وقد يحدث هذا في زمن لا يفقه الفرد فيه، سوى إن كان من الروح يلتف ويلف أيامه ولياليه، وهذا بالذات ما أفقد كل صلاة معناها.

العالَم الذي أعيش فيه بشع للغاية، لكن هناك في بعض الأوقات ألوانا مثل التي يضعها البهلوان على وجهه لتزيّنه فتزيّن عالمي أنا أيضا كرما منها، وهو عالَمٌ كثير التقلّبات، البشاعة متغلغلة فيه مع الكثير من المراوغات التي لا أساس لها، وهي كثيرة بين جوانب العالم الأكبر تواضعا بين مساحات الألغام المعرفية، حيث يصبو الإنسان إلى تلقين معالم تاريخه الكثير من دروس السذاجة أحيانا، ومع ذلك هناك بريق بين الليلة والأخرى، الذي يجعل من الفرد قادرا على تعلُّم ما يرغب فيه، أن يصير "هُو"؛ على الرغم من أنَّ الكثيرين لا يفهمون هذه اللغة، ويسرعون إلى تبنِّي بعضا من مقدَّرات البشر، لكنَّها لا تكوِّن أجزاء منهم، لأنَّهم وببساطة غير ملائمين للجوِّ العليل.

هناك ما يكون معناه بأنَّ الإنسان هو ذاتا قبل أن يكون بشريًّا، هناك في قرارة النَّفس الكثير من أنواع المرجعيات وهي دورية الوقوع، أيْ أنَّ لها المواقيت الكليَّة التي تجعل من المصاعب

التي ترسم للإنسان طريقه، ما يجعل الإنسان سعيدا جدًّا، ولو لحينٍ قريب، هي أمور على الفرد التَّفطن لها، على الإنسان أن يكون ذا حيوية ولو عبر أنفاق نفسيته المتقلِّبة أيضا، لأنَّ هذا يجعله أبلغ الناس وأقربهم إلى معالجة ما يمكِّن الجميع من التّغني بباقات الرهانات بعد الفوز بها بالطبع، فيا له من مجتمع غريب! يدعو إلى الحياة بوسائل الموت، يا له من فكر تجريدي خاص! يزرع بين جنبات المعاملات أمورا لا تتصل بالكثير من المواقف سوى بواسطة تكاليف لها الوجه الخاص بها على مرِّ الأوقات والأزمنة، فلما الإنسان هو متقلِّبٌ هكذا؟

يصبح مبتسما، يمسي قليل الحياء وقد يبيت على غضب هائج؟ لماذا؟ لن يكون من السهل العودة إلى ألغام لم تترك لَمَن وضعوها حقَّ الوجود، وسيكون من المهمِّ أن يصبح الإنسان واقعا في حدِّ ذاته، لا علاقة للإنسان بما هو حاصل حوله، ولكن له بعض النصيب ممَّا يرثه عن علامات كهذه، خاصة وأنَّ البشر يتغيَّرون، ويحرقون أنواعا متكررة التزامن مع ما يعادلونها في الشدَّة وإمكانية البقاء قريبين من الروح، لا مجال للوصول إلى وضع تقريبي بين التجلِّي والمضمون، لأنَّه غير ثابت، وما هو متحرِّك لما هو معتاد، أي حريٌّ بالجميع التأكُّد من ترابطه عبر ما ييسر له

الأخذ بهذه الالتزامات المعرفية والوجودية على حدٍّ سواء، معا وفي الوقت ذاته.

إنَّ الوصول إلى الترتيب الجاد، هو ما يجعل الفرد يؤخِّر وجوده إلى أن يصبح قادرا على تحصيل كمية روحية مناسبة، حيث يمكن للكلِّ أن يجتمع على طاولة واحدة، من أجل إقامة المشترك بينهم، من أجل الوصول إلى ما له صلة بمعالِم الفكر وتلمُّس نور الحقيقة التي لطالما ادَّعى الكثيرون امتلاكه، فهل رأيتم أحدا امتلك نورا لوحده على مرِّ الأيَّام والعصور؟

لن يكون من الجاهز البحث عن أرقام المعاني، لكنَّه طبعا في عالمي هو جاهز، فنحن أحرار حتى وصلت الحرية درجة قاصِرة للغاية، فكان من المهمِّ أن يجعل الإنسان حياته مصبًّا غير فسيح ولا يسع الجميع ومع ذلك هو يسعهم، لازلتُ ابتسم أيُّها العالَم!

لا يمكن أن تتوقَّف الحياة، على الرَّغم من أنَّ أيَّامها السعيدة، هي محدودة ككل أيامها بالعموم، وهي التي يرغب في دوامها كلُّ إنسان، فمَن منَّا يحب الكآبة؟ لا اعتقد أنَّ أحدا يحبها! لا علاقة للفرد بما هو ينتجه، رغم أنَّه يوفر للجميع صدًّا واضحا بين ارتدادات الأصوات واشتقاقات المعاني، حتى صار الإنسان هو نفسه الرحمة الشَّقية، هو نفسه الغطاء المعدَم للحياة

المضطربة، هو نفسه التَّرنحُ الخطير الذي بقدر ما يمكنه سلب حياته، هو يعطيه مزيدا من الأمل في الحياة.

بين الثانية وما يليها عُمْرٌ، يحاول صاحبه الانتصار له، فلا يبقى من شتات روحه سوى الذكرى، حين يعلو صوت الغراب، حين يحاول مرة تلوى المرة، فلا يُستجاب له، بل لا يجد ما يقوله وهو أدرى بما يقول، لأنَّه إنسان، عليه أن يختار جيِّدا كلماته، عليه أن يجعل سلام حياته رهين سلَّم معتقداته، وعليه أن يحرِّك البهاء والرجاء الخاص به في كافة الاتجاهات، فلا يسير إلاّ وهو مغمض العينيْن، بين الوميض، بين العجائب من دور العبادات، بين أفكار لم تولد بعد، ليساهم في ولادتها بتحمّله ألم مخاض خروجها للعالَم.

قد يجازف الإنسان إن ما هو ولد في الجزائر بفكر نيويورك، وقد يعيش معذبا إن ما كان حالما بالخلافة الرشيدة خاصة إن ما كان يستعمل الفايسبوك، وهذا حال كل معذبي أرض طه حسين، لأنّ أعمى العرب المعجب بباريس نسي ما جسَّده جنرالات الفرنجة على أرض الحجاز والشام، وحتى أرض الأقباط من جرائم، فلما وصفهم بالملائكة إذن؟

لا يعرف اليونان سوى من خاض آغورا الفكر بين أروقة يسودها خُبْزِيسْت، ولا يفهم انقلاب السحر على الساحر سوى كبير يلقن سحره لصغار – كبار قومه، حيث تضيع الحقيقة بين ركاب عبَّارة ليفربول باتجاه تمثال الحرية الفرنسي على أرض الأحرار ورعاة البقر.

لا يعرف... ولا يفهم قضاء الأقدار سوى صائد ثعالب الجليد في أعماق سيبيريا، أو مورسكي عذب الصوت من سطح ايبيريا، حيث تتلاطم أمواج الألسن لكن روح عذاب البرد الطبيعي – الفكري ليصبح واحدا، هو اضطهاد العقيدة سواء كانت نابعة من المثال أو الدين الواحد، لأنَّ في جبل ما من قلب البتراء ضاع صوت رخاميٌّ كصوت لينا شماميان، كان يرتّل قصائد داوود في عزِّ حرّ بلاد الغال ليصير بردا.

ليس هناك خط فاصل بين الجمود والجحود فكلاهما واحد، هذا ما تعلمته بين أروقة أكاديمية بائسة، لا تحمل من اسمها سوى عبارة: لا يدخل علينا، مَن كان صادقا – باحثا عن الحقيقة من أبناء الجزائر المخلصين.

ليس هناك فرق بين طيار في قمرة قيادة الطائرة الشبح (B2)، وهو في أجواء بلاد الشام أو العراق يقصف أراضي

الحضارات والديانات، وخسيس لئيم يسير كالشبح بين أروقة جامعة تلمسان، وهو يقصف عقولها الفتية بسمِّ سلطته الإدارية الرعناء، إن ما صحَّ من الصحيح ما ينبت من عقال الأفكار ولهيبها، وهذا بالذات ما سيكون في غمرة أرخميدس وهو يزور مبنى البيت الأبيض على أرض أمريكو المغامر.

هذه الحياة ما أحلاها، حلاوتها من عسل آخر نحلة حطَّت فوق الدليلاما، أثناء زيارته للفاتيكان، حيث صلى ركعتيْن باتجاه الكعبة الشريفة، بعدها دعا متبركا بالوليّ الصالح جورج بوش، وذبح دما أمام باب ضريحه، حيث لم تكن الذبيحة سوى سلالة ابن رشد قاهر الوندال، بعدما كان من أبنائهم حتى زمن قريب.

الكلُّ مسؤول على الفهم الذي يجب أن يُناط به الإنسان، وكلُّ فرد هو ذلك السعيد في نجواه الفردية، وعلى رأي الحضارات: هنا الكثير مِن الآراء، لكنَّ الأنانية هي المُحارب الذي يرفع سيف الإقصاء في وجه الإبداع دائما، وهي الكنية التي تساعد الكثيرين على رفع بعض مياه البحيرات العكرة إلى صف الجواهر الثمينة، فلا يقدر الفرد على تبنِّي كل ما يمدُّ الاتصال إلى لغات العتمة، ولكنَّه يحاول بنوره الضعيف أن ينير كلَّ ما يصل إليه، كون أنَّ هناك فرق بين الفريقيْن المتقابليْن، الأوَّل: في خلده التبجيل

والتصريح بكلِّ ما له من مدركات وتمايز، وَالثاني: يغلِّف كلَّ نجاح بتشوُّهاته هو، ليصارع الإنسان في كلِّ ثانية آلام إنسانيته ووقودها.

لقد تحدَّث الصِدِّيق منذ زمن طويل عن فكرة "القابلية للاستعمار"؛ وهي فكرة في اعتقادي مهمة للغاية، ومن صلب عمق العالَم الجزائري، كونها تعبِّر وبصدق منقطع النظير عن النفسية الفلكية للفرد على أرض الجزائر، وهذا ما ألمسه كلَّ يوم، حيث تُضرب باريس فيبكي الجزائري على دماء أجدادها وآبائها، وهي التي تفننت وتتفنن في طبخ سمومها له وسقيه إياها، إما سياسيا، اقتصاديا، ثقافيا أو حتى فكريا، دينيا ووجوديا.

ذهب بعض الجزائريين إلى أبعد من هذا، فرأى سعادته في فرنسا، صار يكدح في تعلُّم الفرنسية، ويتحمّل ميزانية أكثر مما يجب، من أجل اقتناء كلِّ ما هو فرنسي، أو على صلة بفرنسا، وكأنَّ الحظ فرنسيا فقط.

لم يكن من السهل عليَّ وأنا حفيد المجاهدين في سبيل تحرير الأرض الجزائرية من فرنسا أن أرى هذا وأتذوَّق هذه المشاهد، فكنت كمن يتذوَّق المر، لكنه موجود، موجود رغما عني، فلا يشعر بالمأساة سوى الأسير بين قضبان زنزاناتها، هذا حال

المهمشين في العالَم الجزائري، كُن خادما مطيعا للكيان الفرنسي وستنجح، أمَّا لو حاولتَ أن تثور على الذل الفرنسي والهوان النابليوني القابع في أرواح بعض "قادة" العالَم الجزائري، فإنَّهم سيلفظونك ويحملون لك الحقد والدسائس، لأنَّهم صاروا عبيدا لفرنسا الضعيفة واقعا، تلك الإمبراطورية الصاخبة أمام أرواحهم المهترئة بطبيعتها.

بالنسبة للجزائريين الأحرار، السعادة ليست فرنسية، وكل ما أتى من فرنسا إلى الجزائر كان بدافع الحقد والغلّ، الطمع والجشع، حتى أنني اعتبر فرنسا وريثة الشيطان على الأرض الجزائرية، لا تزال آثارها ومخططاتها من طرف بعض العصابات الخفية والمرئية تسرد على مسامع الأجيال لغة لم يكن لها الفضل سوى في تحويل الجزائري من سيِّدٍ على البحر الأبيض المتوسط إلى عبد لكل محيط البحر الأبيض المتوسط، عَبْد بشكل حقير جدا.

لا ينهار الإحساس بالسعادة على طول عمر البشر، هناك فترات للحزن والأنين لا أنكر، ولكن السعادة هي السماء الصافية التي نعيش تحتها كأفراد، بعيدا عن ظلم الناقصين، أو زهد الكاملين، وما بينهما أمور قابلة للتدوير والاسترجاع، وكأنَّ الحريّ بالعالَم هو أن يسلك الإنسان تلك الشوارع على اختلافها، سائرا

على رصيف مشترك مع الجميع، في حين أنَّ عليه أن يكون فردا قبل أن يكون غير ذلك، هي أمارة الجميع، رغم أنَّ الجميع لا يريد لها أن تكون لهم.

صيغة هي تلك التي تبحث عن منفذ ما إلى وجهة غير جديدة على الإنسان، في اللحظة التي يصيح فيها الوجدان بشكل ساخر/ثائر، يعود إلى الأصول الأولى، إلى كلِّ ما هو غير كفيل بأن يدرك الجميع ما هو غير مدرَك، فتواصل الفواصل رسم الحروف وترتيل المعاني، وهي عملية شرعية منذ البداية، منذ ميلاد الآلهة وخضوع الإنسان لها بشكل إذعان خالص.

هنا يزيد الفرد البشري من تجاربه، يعمل على اعدادها وتحصينها، قبل تحصيلها وتعزيزها، ليصبح بين الكلفة والأخرى مستهلكا بما يكفل له وبه أمور الرضوخ، في عمق كلِّ هذا، لا تزال الذكرى تراوح الترتيب، ولا تزال القدرة على اكتشاف البشر هي التي تسير بكافة أهداب الفكر الإنساني إلى مصاف الحذر من الغجر، هي صيحة ليس لها سوى أن تقيم أفراحا بعيدا عن كل بال مرتاح، هي قيمة من عدالة تنشأ داخل الفرد ذاتيا، لتسمح له بتشكيل بعض أطروحاته العميقة، فتنتج له بوصلة يحاول بواسطتها أن يجزم بين ما هو قانع به وهو مؤمن بصدقه، وما هو

ملتفت إليه وكأنَّه غير عارف بما يصنع، لتصبح الحياة تلخيصا لمحطات تبدأ بالصراخ وتنتهي به، صراخ ذاتي داخلي، وصراخ أجنبي خارجي.

لقد أيقنتُ وأنا صغير على الدَّرب، بأنني لستُ بعيدا عن اللا-مبرر في الكثير من الأوقات، وقد تعلَّمتُ وأنا الذي يجعل تعجيل الأسباب مرامي سارية التوضيح أنَّني لا أميل سوى لكسب ألغاز الجميع، في وقت أنا في غنى عنها؛ لقد فضحت التقنية الأخلاق في العالَم الجزائري، وراح الجميع يستهلك أهمَّها بلا رحمة، راح الكل يحاول بذروة أعصابه أن يجعل من كافة موازين الأحلام سدَّادات لما له من عقد جواني، وهي في الأصل أمور لا علاقة لها بي وحدي، لأنَّها رعاية تبدأ في الظل، وتنتاب الجميع لتسهِّل تراجع الكلّ، فهي مقالات أعمدة النفس في حضرة الصحافة الشاملة المتجسدة في التاريخ كلِّه.

لم يكن من المهمّ أن يعود الإنسان إلى لغة ليست منه، لم يكن حليًّا به أن يسارع إلى علاقة ليست من صلب وحيِه، وهي الأسيرة التي كانت لها محياها، كانت تسامر عقارب الزمن، وتبحث بين أغراض الإنسان في كلِّ مكان يصله الفرد ولا يسمح بوصول أحد؛ كم هي صعبة لوعة الفقدان، هي درجة متدنية من

الحرمان، لكنَّها موجودة في رتل كلِّ قلب ينبض، وهي التي تدفع شعبا بأكمله وبكامل المواصفات، ذلك الذي يسمَّى بـ: العالَم الجزائري إلى مشاكله كلَّ حين.

لا يمكن، لا يمكن أن يكون من السهل على الإنسان بلوغ الهدف الذي يخيّل إليه أنَّه متاح، ولكن للأقدار الكثير من الاعتبارات، مع ذلك تولد الكلمة أزلية وتبقى حتى تصبح أزلية الأزل؛ هذا المرح الكبير الذي يجعل من القِران الواضح بين المعنى والزمن مشروعا جدًّا، وهو الذي يجيز للظلم أن يخاف من أقلام ومفاتيح بسيطة، هي اعتبارات كثيرة، لكن لكلِّ واحدة منها فهم يرسل بعض التأويلات، وهي محجات السعادة دون الدراية بذلك، خاصة وأنَّ العلاقة الواضحة بين الحرف والرسم، هي أيضا المحجة السارية بين العدل والاعتدال.

لما يفرح الإنسان يا ترى؟ وهل السعادة هي مرادف للفرح؟ هي أسئلة لا تزال ترافق الفرد الإنساني كلَّما نظر إلى شذرات وجوده وألغازها، خاصة وأنَّ العالَم الذي يقع فيه الإنسان، هو العالَم الذي لا يستطيع كل الأفراد الرضوخ من خلاله، لتصبح كافة موازين العالَم وجودا لا يفهمه سوى من أراد أن يحاول إقامة

نفسه وفق ذاته فقط، حيث لا مجال للآخر ما دامت سعادة الذاتي هي ذاتية الذات دون مجال مغاير.

لا يغلب على الوجود الإنساني سوى الابتسامة التي تخرج من عمق الفرح وتسير جنبا إلى جنب مع الغبطة، هي الأقدر على حمل الروح وحفظه، كما هي الأسلم لتسفير السعادة ونشرها، حيث يكون الحزن لا يتعدى كومة الأفراح، لكن بلغة أخرى وفي مواعيد أخرى كذلك.

عندما نحاول معرفة الإنسانية فإنَّ الأساس يختفي، وهي أمور تترجح في أعماق الشخصية السعيدة، فهي هوامش على نصوص المتون، حيث أنَّ الذات تكون ولا تكون، فبصيغة التبرير قد يسود التعكير، وهي أساليب في مراجعها كلها لا تتعدى غواية الحياة، هي التي تتجاوز لغط الدنيا من الرهط العام نحو سبيلٍ آخر، وهو القائم على رعي الشعور في حديقة العقل الذي ينساب من بين أبواب القوانين والأعراف.

ليس هناك أمل في الجمال إن ما تعلَّق الفرد بترجيحات الأيَّام، ولَهْوِ القالب العام، ليس هناك بُدٌّ من تلفيق الأوهام في ثياب الترقب وتقريب الأجرام، لأنَّ الهدوء هو الحدَّة التي تحُفُّ ترانيم السلوك البشري، مع أنَّ الإنسان لا يدرك سوى أنَّه من

الأحياء؛ لم أجد في حياتي كلَّها لغزا يجعل العقلاء في حيرة قصوى من ابتسامة ترسمها قضية بسيطة على وجه بريء لا يعرف من الحياة سوى اللعب واللهو، أو البكاء والعويل، إن ما جار عليه الزمان فأظهر له قسوة الإنسان.

لم أجد أبلغ من هذه الصورة التي تدهش الخاطر والفؤاد، حتى تسبّح لها المشاعر والوجدان، مستشعرة حضور البرهان مكان الإيمان؛ كم هو صعب أن يولد طفل ما في عالَم مليء بالحمقى والمجانين، بالمنافقين والمتملِّقين، حتى صار لا يقبل سوى بمنافق جديد للولاء دون غيره، لقد صرتُ أشفق من عمق قلبي الإنساني على كلِّ مَن يحاول الانعتاق من جنون هذا العالَم الغبي، عالم تقبَّل اليوم كلَّ ما رفضه البارحة وحرَّمه من قبل، فراح يباهي بخنوعه أمام ملايين الكاميرات وعلى مسامع الصحافة ووسائل الإعلام، عالَم بكى بحرقة في حفل توديع الشرف والأنفة، النبل والعظمة إلى ملاجئهم الأخيرة، متناسيا أنَّ قتلهم قبل وقت قريب جدا من موتهم جعله عالَمًا سعيدا للغاية.

كم هو مضحك أن تنادي تلك العروس بـ: السعادة وهي تلتهم جسد عريسها المسمى بالموت التهاما، لكننا نفعل، وتحت

عناوين كثيرة نقوم بذلك، دون أن نعالجها، ونحن نعلم مسبقا أنَّنا الداء وأنَّنا العلل.

في سكون البرد تولد الحياة، وهي التي تجعلنا سبب كلِّ ما يحيط بالحياة، لقد وُلدتُ في هذا وترعرعتُ به، وأنا كغيري الذي اكتوى بنار الظلم وقاسى جرّاء ضربات ساطور المعاناة أفهم كم أنَّ الحياة جميلة بدون وهم السعادة، وكم أنَّ الحزن أقرب إلى الحياة وكم أنَّ السعادة أقرب منه إلى الوفاة؛ حتى صار كلُّ ما هو موضح من حولنا مجرَّد قوانين خطَّها الحبر على الأوراق، فصارت السعادة أيضا تلخصها كلمة "أعجبني" على مواقع التواصل الاجتماعي، لا أقل ولا أكثر.

كم هو صعب أن يعيش الإنسان من خلال مجتمع غير قادر على استيعاب أبنائه، وهُم رغم ذلك يخضعون له بشكل أعمى، حيث يصبرون ويصابرون وهُم يعلمون بأنَّ القهر هو نصيبهم، لكنَّهم يتعاملون مع قضايا مثل هذه بمنطلق التعامل مع القضاء والقَدَر، فالفقراء قَدَرهم الفقر، والجنرال لا ينجب سوى جنرالا مثله، والبقية لا يعلمون ولا نصيب لهم من هذه الحياة سوى قول: نعم سيِّدي!

هي آيات تتلى على مسامع الأجيال، وكأنَّ المعالم كلَّها تجعل من توحيد الفرد يعلو، وهذا كلَّه يجعل من الذات الإنسانية مسخا، يمكن للإنسان أن يحاول دائما، أن يجاهد دوما، وأن يصاحب ذنبه، ترفيهه، كلامه وملامه، لأنَّ هذا هو مداه؛ لقد تعقَّدت الحياة، وجعلت البشر يتبادلون الأدوار فقط، تلاعبهم حينا، وتجعلهم يبكونها أحيانا أخرى، وهي تجلس قبالتها على سفح التل تضحك معهم في فترات وتضحك عليهم في لحظات، نعم هي الحياة التي لم يخترها أحد، ولم يرضَ عليها أحد، ويطلبها الجميع، حيث يوجد العنفوان، ويخاطب الإنسان الزمان، فلا يكون من المهمِّ أن يكون الكائن ما كان الكون دائما وما لم يكن، أبدًا هي الأبد، هي الأيَّام تسير وفقها كل قضايا الإمكان، فلا هناك من يراقب المراقبة، وليس هناك من يوارب الموارية، بل خائضات توحدية تصبغ أهمَّ الموجودات بعلاقات تجعل من صبر الإنسان علامات تصاعدية، تساهم في ترغيب الإنسانية، وتوحش البشر على بشريتهم الضعيفة، ليسكنوا منازل قديمة ومهجورة، لا يحاربونها سوى لأنَّهم حاربوا من قبل ولم يكن لهم النجاح على هذه الطريق، حيث بلغ بعضهم قمَّة اليأس ليمزجه بالأمان من جديد، وعلى وجه التحديد، يتصاعد الدخان، وكأنَّه يغطي المنظر

القبيح، لكن سرعان ما يزول، ويظهر القبح بكامل جلالته، فينقشع الضباب المزيَّف، وتطرق الحقيقة باب الإنسان، لتجعله غير قابل للنسيان، الأمران سيَّان، على أرض لم تعد مثل غيرها من الأراضي، أرض أنكرت إنسانية الإنسان، بعيدا عن كلِّ ميزان، حيث تصبح العلاقة بين الحلقات جميعا تشرح إمكانيات محدودة.

تستعيد ضرورةً لم يكن لها لزوم من الداخل، حيث كان لها الوجود، ولم يكن للوجود أيَّ وجود، لتتحوَّل الفكرة إلى غير مرغوب فيها، غير مرغوب بحياة وسط هذه الحياة، حين أنار الفرد ذاته، تاه بين ظلام وسطه المتنافي في نزق الغسق، ونام الداخل منتظرا إمكانية نشاطه، ليحاول الإنسان من جديد، رسم تلك المساحة، التي يعبِّر فيها بكامل ما له من حرية وانبهار، حيث استخلص الجميع تلك التي لم يعد لها حضور بين الضمائر، بل صار لها سحر فَقَد بريقه مع مرور الأزمان، ولم يعد للإنسان إمكان، فسار الكل نحوه ودون فيضان، ليعود البؤس إلى كلِّ مقبرة للإيمان، ويستعيد مجد موته، ويصبح من الضرورة بمكان موت الفرد، موت الإنسان.

حين يخوض العالَم زمانه، سيسير على حواف حظِّ التاريخ والجغرافيا، ويقفز فوق الراحة الروحية، ليجعل من كافة السموم أدوية تساعده على الهلاك، وكأنَّ المستبدين رغم قلَّتهم قد اكتسبوا قدرة هائلة على رفش الشعوب والجماهير، وتحويل العامل إلى عاطل، يتمُّ تعطيله بسلطة القانون، ذلك الوحش الذي فرضه عليه من أجل الإبقاء عليه ضمن قفصه وهو يصرخ، هي علامات لا تحدث سوى عندما تسرُّ الأعين ويمرض القلب، تستعر الأفئدة وتتراجع المنايا أمام كافة الحسابات والبراهين، لا علم لنا إن ما كنا من الناجين، فالفيضان يجرف الإنسان، لا حدود له، بل إنَّه خارج التوقُّعات والعصمان.

هناك قدرة رهيبة على التحوُّل من ضفة إلى أخرى، ولكنَّها لا تكفي للنجاة؛ هناك أمور تجعلنا مميَّزين، وتجعلني مميَّزا أيضا، لكن في الجزائر المميَّز هو متمرِّدٌ وجبت محاربته، وعليه فإنَّ كلَّ مميَّز هنا: إمَّا يخبِّئ تميُّزَه، أو يفرُّ به بعيدا، أو يتخلى عنه، ويصبح جزائريا ككل الجزائريين، بلا هُوية ولا دين ولا خُلُق، خاضع بشكل أعمى وبشكل عبودي لسلطة الأسلاف على الطريقة الأفريقية القديمة؛ اعتبر نفسي مميَّزا، ولكنني لستُ جزائريا في أعماقي، وإن اتبعت عادات هذا التجمُّع البشري وتقاليده أحيانا، لكنَّني

بالانتماء أنا مسلم، أفريقي، عربيَّ اللسان، أحمل بين مركّبات دمي المختلفة الجزائر قالبا وقلبا، ومع ذلك قلمي لا يتعب من انتقاد الجزائريين ككلِّ الجزائريين، غيرة مني على وطن حلم أبناؤه المخلصون به بعيدا عن الهاوية، وتفاءلوا به خيرا، رغم أنَّني أحد أبناء الرصاص والدماء من مرحلة العشرية السوداء/الحمراء.

يقال في الجزائر: "مَن يولَد تحت الرصاص، لا يخشى الموت"؛ وعلى اختلافنا في الجزائر، فإنَّنا نجتمع حول قالب القومية والوطنية، مع أنَّ لكلِّ منَّا طريقته في التعبير عنها، وطريقتي ربَّما تقترب من طريقة ألبير كامو، رغم أنَّها أكثر ابتعادا عن فرنسا، كوني اعتبر سلطة قصر الاليزيه، ما هي سوى قملة دبَّت على الأرض الجزائرية ولم ترغب بالخروج منها أبدا، هي نقمة بكل المعايير والشرائع والقوانين على الجزائريين المخلصين، بينما البقية هُم إمَّا ضحايا للفرنسيين دون إدراك منهم، أو مستفيدين من الوجود الفرنسي في الجزائر، فيخدمونها بشكل مطيع جدًّا.

هُنا عليَّ ان أبيّن الفرق الواضح بين السلطة والشعب، لأنَّ الشعب الفرنسي كغيره من الشعوب، فيه الصالح والطالح، لكنَّ الوجود الفرنسي في الجزائر عن طريق المعمّرين أو المستثمرين، هو وجود متغطرس ولو كان من طرف الكتَّاب والمعلِّمين، لأنَّهم

يحملـون حتى كتابـة هـذه الأسـطر، هـدفا اسـتعماريا لقيطـا إلى الجزائـر، ويعتبرونهـا كمـا ورد في دسـاتيرهم "الجزائـر مقاطعـة فرنسية"، وكلُّنا نعلم بأنَّ هذا غير مقبول أبدا.

لي أفـراد مـن عـائلتي يعيشـون على التراب الفرنسـي، ولي أصدقاء فرنسيين أبا عن جَد، وهُم طيّبون للغاية، ولطفاء بشكل رائع، ويعاملونني كجزائري متضرر من التاريخ المشترك بين هاتيْن الأمَّتيْن، وهـذا مـا هـو مقبـول لـدي فعـلا، لأنَّ الأمَّـة الفرنسـية هي غريبـة عـن الأمَّـة الجزائريـة، ويجـب على الجزائـري أن ينظـر إليهـا نظرة الند للند.

هنـاك فـروق واضحة، وهي موجـودة وجليَّـة، والزائـر لكـلا البلديْن بإمكانه تمييز ذلك، ككل البلدان المغاربية المجاورة أيضا، لكـن مـا هـو موجـود في الأنفس أمـر آخـر، هـو ينحـو منحى مغـاير تماما، حيث يسـرد الموجـود على مسـامع البشـر مبادئ وأفكارا غير متـوافرة ولا هي متـوفرة لـدى كلِّ الأجنـاس، حيـث توجـد الأقـوال والمضـامين، فـلا يـدركها كـلُّ البشـر، سـوى الـبعض مـنهم، وهُـم يحاولون بـذلك رسـم بعـض التمييز بين ما يمكنـه التواجـد ومن لا يمكنه الحضور، خاصة في الجزائر معقل المتميّز المضمر، وساحة التتابع والتوابع عبر الاتباع المعلن، هنا تكمن الحيرة والدهشة في

صيغة تقترب من التَّوحُّد والانجذاب، فعلا هي قضية تحتاج إلى دراسة كافية، وتعليق أكثر من جاد.

عندما يحاول الإنسان دراسة العقلية الجزائرية، سيجد صعوبة واضحة، سيجد نفسه أمام اضطراب شديد، وشرخ كبير بين القول/الفعل، الممارسة/الأيديولوجيا على سبيل المثال، فلا تسمع كلمة "لينين المسلم" عبر الاشتراكية/الإسلامية سوى في الجزائر، ولا ترى الفتى يلبس على طريقة سود أميركا "هيب/هوب" وهو في مسجد يصلي صلاة الجماعة، ويضع في الوقت نفسه طربوش مصالي الحاج، سوى في الجزائر أيضا، حيث تختلط الأصالة بما هو حالي، ويولد الماضي كلَّ يوم من فتات الحاضر، أملا منه في التجديد بأشكال يخرج عن سيطرة كل تحديد، وهي أمور خارج السيطرة وطابع بقدر ما هو غريب، هو مألوف أيضا.

حياة الفرد الجزائري هي أشبه بمحكمة يومية مفتوحة، كل ما يرد إليها هو كتلة من المعطيات، تخرج في أشكال أحكام مختلفة، وعليه يصبح من الاعجاز التعامل مع أفراد الإنسانية بالقدر الذي يتعاملون هُم مع التبشير وفق مدركات اللوازم كلِّها، وعليه يصبح الإنسان بعيدا عن إنسانيته، وهو يحاول درء

العناوين كلَّها، بمختلف اطيافها وعوائقها، في لطمة واضحة للأوساط البشرية.

كم هو مفيد من الحين للآخر أن يتطلَّع الإنسان إلى مجالات يجهلها، فيحاول أن يكون كمن يريد امتلاك الزمن والعالَم معا لوحده، لتظهر القدرة التي تدفع إلى الأنانية على هيئة أشكال مختلفة ووفق مراسيم متنوعة، أوَّلها الفرد وآخرها مشتقاته، هي ألعاب الضمير من ناحية اكتساب جلالة الإنسان، وهي التوحش حين يصبح من الضروري الاعتماد على توازن التناقضات، حيث يمكن أن يكون الإنسان أكثر من إنسان، يمكن له أن يصبح قادرا على إفشاء حياته وعيشها في العلن، بعيدا عن الحقد والجدل، بعيدا عن حبكة الأسئلة وَتراتيل المجهول.

ما أسلم الدور الريادي لكل فرد يحاول بناء ألويته لوحده! ما أعذب التكتل وهو يجول بمتطلَّبات الأرقام وأواصر الأبنية المختلفة، لقد صار الجميع أرقاما لعدَّاد لم يعرف النهاية بعد، حيث يسلك الإنسان ترقيات، لها ما لها، وهي تعتدُّ بأواصر المحبة وتخشى من العيش في موضعها، ليضيع الأمل بين الوهم والحلم.

ما أسهل أن يتوهم الإنسان بأنَّه الحيّ! وما أسهل أيضا أن يكون بين هذا وذاك، لكن! وبالمقابل، هناك الكثير من مجريات

الأحداث التي تجعل الفرد يغزو لوحة فؤاده بمرافقة خالصة لنواته، لأنَّها الوحيدة التي تعزز وجوده وحضوره برفق فتي، هي لغته التي يتسامر معها دائما، بعيدا عن لوحات التأثير، قد يجعل التخمين البشري أساليبه كلّها في خدمة العبثية ورعاية المفهومية المسروقة، وهي أدوات تنتهي كلّها بنهاية واحدة، هي المعاناة.

الشرخ الروحي أمر غير قابل للتمديد، هو مبعث الإنسانية كلَّها، هي علَّة الرجاء بين قضايا الاكتساب المعرفي الخالص، لأنَّ الإنسان العارف هو أقرب البشر إلى تراجيديا، وهو أقربهم إلى الحياة، صدِّقوني: من لم يعرف طعم الألم ومذاقه هو يفتقد الكثير في حياته، لهذا ليس علينا أن نرضى به، بقدر ما هو علينا أن نحاول فهمه، مجرَّد الفهم.

من أجل أن يكون الإنسان سعيدا، فإنَّه يحاول دائما أن يستصغر الآخرين، لقد تعلَّمتُ هذا وأنا الحامل لكل امكاناتي يوميا، على طريق ريفيٍّ، أقصد مدرسة هي البناية الحكومية الوحيدة في احدى قرى الجزائر، حيث أجد أوَّل دفعة شعبة الفلسفة والتنوع الثقافي بجامعة تلمسان، مجرَّد مدرِّسِ استخلاف في مدرسة نائية، وبين جهلة بثياب مدرِّسين، ترتفع المشاحنات

بينهم إلى أقصى حدودها، إلى درجة التفتيش والنميمة في ظلام الليل العميق للحقد البشري.

أنا لا أفعل هذا، لا استصغر الآخرين، لكن هذا ما لمسته فيمن يحيطون ويقومون بخدمة هذه المؤسسة التعليمية التعيسة والنائية في أرض القراصنة؛ لقد ضاع الأمل، آه لقد ضاع، عندما يحمل لواء التعليم مَن أعدم العربي بن مهيدي، حتما التعليم قد ضاع، والتربية قد ضاعت، وكل الحياة قد ضاعت بين رونق عروس التمويه والتباهي بالفراغ؛ بين هذا كلِّه أجد نفسي مضطرا اضطرار ميكيا/فيلي لإرسال الأمير إلى الأمير، مضطرا أن أساير أمواجا جزائرية تعبث بآخر سفن أسطول تحطَّم في معركة نافارين، وأنا الذي يعلم أكثر من غيره، أنَّ تلك المعركة عندما تقع في الأنفس، فإنَّها تدمِّر الحياة الجزائرية، مثلما دمَّرت الإنسان الجزائري، وتحت شعارات ونداءات تقتات من النفاق والبغضاء، حاملة معها سخط النفوس على الأنفس، ومتطلعة إلى فقدان جديد الحياة، حيث يسكن الاضطراب، وتعود كلُّ الحكايات لتتشابه على أرض لا تستحق كلَّ هذا مِن عصابة ولدوا عليها بالصدفة.

بـدأت رحلتي مـع المـرأة في الحيـاة منـذ وقـت طويـل جـدا، وعنـدما أسـرد قصتي مع المرأة ذاتها، فـإنَّني أسـير وفق الخطة التي تجعل من الفرد يقف موقف الحيرة منها، وارتباك مزلزل للإنسـان، هـو يشـهد اضـطراب هذا المخلوق الفريد من نوعـه أمامه، يسـاوره الشك حينا في بشريته، كونه ألطف من الذكر/الرجل، وهـو أكثر منـه ذكـاء، وحـدة، ثباتـا وقـدرة على إدارة الظـروف والتـأقلم مـع مساعي البشر، نعم! هذا قليل ولا يعدو أن يمثِّل نزقا في قطرة مياه المحـيط الأطلنطي، إن مـا قارنتـه بمـا هـو يلـفُّ قضـية المـرأة في مجملها، هذه الميزة الفريدة، جعلتني أقف أمام المرأة وأنا لا أقصد نسـاء المحـارم كمـا ورد لـدى شـيوخ المسـلمين، يعني الأم، الأخـت أو بنـات ونسـاء لا يمكـن الـزواج بهـنّ، وإنّمـا أقصـد كلّ فتـاة بإمكانهـا إزالـة لغـط الـذات عـن ذاتيتي وسـلبي إحساسـي بالأمـان، لتقتطـع بعضا منه وتعيده إليّ، نعم! بدأت القصَّة معي وأنا يانع جدًّا، حتى أنَّ الـبعض قـد اعتقـد أنَّني نضجتُ قبـل الأوان، فكانـت مراهقتي صـاخبة وخائبـة بسـبب هـذا النضج المبكـر، وازدادت حـدَّتي نحـو هـذا الموضـوع، حـين قلـتُ يومـا: "فلتـذهبن إلى الجحـيم"؛ أثـار هـذا ضجة كبيرة، حيث أنَّ رفعي لقلمي بعد ذلك للدفاع عن حق المرأة الجزائرية في الاختيار ورفع وصاية الرجل عنها، لم يجدِ نفعا، وحتى

اعتـذاري بعـدها فـي مقـال مطـوَّل لـي بعنـوان" الأيروسـية والفردوسـية"، لـم يشـفع لي ولـم يغسـل أثـر مقـولتي تلـك، والتي هاجمتُ فيها كل النساء خلال تاريخي الشخصي؛ حيث بقي سؤال المرأة يلازمني، وزادني حيرة عندما قرأت روايات أمين الزاوي، الذي يصفه البعض من الجزائريين بأنَّه كاتب يلوِّن قلمه بأحمر الشفاه، وهي كلُّها أمور جعلتني أطرح هذا السؤال في الكثير من الظروف ومن زوايا مختلفة، لعلي بذلك أقترب من محاولة فهم ماهية المرأة؟ ومعنى ضرورتها في الحياة بشكل عام؟ ومغزى حضورها في حياة الرّجُل بصفة خاصة؟

أعلم مسبقا بأنَّ هذا الموضوع بالذات يوقعني بين طرفيْ كمَّاشة، أحدهما تأويل الدين الإسلامي على الطريقة الجزائرية، والثاني يمثِّل نظرة النساء نفسها إليّ، وهنّ لم ينسين أبدا تهجمي عليهنّ، حيث أكون مطاردا من سلطة التقديس القاسية، وإقصاء آرائي من طرف النعومة الملتهبة لكل شيء، دون أن أنسى الأخلاق على الصورة الجزائرية، وَرقابة المجتمع الجزائري، وهي كلُّها عوائق وعراقيل ستجعلني في عين المشاكل ومطاردا من الجميع دون استثناء.

لكن هذا كلُّه، صدِّقوني غير مهم، فإرضاء كافة مكونات الحياة مثل إرضاء الناس، هي كلُّها غايات لا تُدرك أبدا؛ ما أكثر المساهمات التي تجعل من النساء مواضيعا، ومن المرأة غطاء لما يوجد من إقصاء لدى الكُتَّاب والمؤلِّفين، والذين على أغلبهم يتظاهرون بالدِّفاع عن حقوق المرأة، فنلمس هذا يدعو إلى مساواة حقوقها بالرَّجُل مثلا، وذلك يدعو إلى التزامها أو إلزامها بشريعة السّماء اعتقادا منه أنّ هذا من الآلهة، والإله هو عنوان العدل، مهما كان! وهذا هو الطريق إلى إنصاف المرأة، والدخول بها في معترك الرفاه الذي لم يصله حتى الرَّجُل نفسه، ومع هذا وذاك، ومع فلان وفلتان وعلاَّن، تكثر الأقاويل والمزاعم، ويبقى الواقع المعيشي يرينا يوميا كيف تُعاكَس النّساء في الشوارع، وكيف يُتحرَّش بهنّ، على اختلاف الدول والأمم، هذا هو الحاصل، فحين أقول ما يحصل في الشوارع أو الواقع بالنسبة للمرأة، فأنا لا أشك في قدرتها على حماية نفسها وكرامتها، وإنَّما أشير إلى أنَّ الرَّجُل الذي يريد إنصافها، هو نفسه الذي يتحرَّش بها ويضايقها ظالما إياها بشكل يدعو إلى الغرابة، لأنَّه يجعلني استحضر سؤال: هل الرّجُل/الذكر إنسان أم حيوان يستدعي غرائزه ويرى المرأة فقط مكبًّا لنفاياته المنوية؟ هل هو منافق يلعب الدوريْن معا؟ لقد

شاهدتُ بأمِّ عيني "دكاترة" ومدربين جامعيين بجامعة تلمسان يدافعون عن المرأة في المنابر الفكرية والندوات الفلسفية، وهُم ذاتهم يبتزونها ويتحرشون بها حين يصبحون في ظروف مواتية لذلك، ومع هذا، أنا لم أنس أنَّني ذكر/رجُل.

لا تزال المرأة على طريق ألمي، من أجل سعادتها، لا تزال تصرُّ على أنَّه الطريق الوحيد الذي يحقق لها مكمنها الروحي في الوجود، لتدفعني إلى سؤال: ماذا أمثِّل بالنسبة لها؟ إنَّها مرسيانا[2] (144/48)، إنَّها تلك الفتاة التي تدَّعي المثالية، لكنَّها تتصرف عكس ذلك، حيث تحتم عليَّ أن استمر في بلع كلّ ما أنا فيه، لعلَّها في يوم من الأيَّام، تكون أكثر صراحة معي، وتخبرني بما آلمني منها كثيرا، أعلم أنَّها تستطيع، أو هي الوحيدة التي تستطيع، حيث النجوم تحترق من أجل زينة سمائنا السوداء، هناك بدر يشعُّ سارقا نور الشّمس؛ هذا ما أجاد به الزمن على المرأة، معذبَة الرَّجُل وقاهرته، لكن فعلا ما معنى المرأة؟

أثناء بحثي في أدبيات الانجليز وجدتهم يعرِّفونها بما يلي: "المرأة هي أنثى بشرية مؤهَّلة"[3]، حيث يوحي هذا التعريف إلى أمور

---

[2] Ulpia Marciana

[3] مجموعة مؤلفين، قاموس أكسفورد، جامعة أكسفورد للطباعة، الطبعة الثامنة، ص: 1773 (الطبعة الإنجليزية طبعا).

مختلفة، من بينها التصنيف الذي هو متداول كثيرا من امرأة وأنثى، ومن هنا أجد نفسي أمام أسئلة أخرى: أيَّ نوع من التأهيل تحتاجه الأنثى البشرية حتى تصبح امرأة؟ ما معنى الأنثى أساسا؟

عدتُ إلى القاموس نفسه لأبحث عن معنى الأنثى فوجدت بأنَّها: "نوعية المرأة، المرأة المؤثرة"[4]، أيّ تأثير يقصده الانجليز؟ طبيعة العقل الإنجليزي العملي/التجريبي هي التي جعلت قيمة المرأة في هذا المجتمع الشمالي من قيمة ما تقدِّمه، لكن مرسيانا لا تقدِّم سوى الألم! فهل هي امرأة؟

لو استندنا على الانجليز أيضا في هذا الأمر، فإنَّهم لم يحدّدوا لا نمط ولا كيفية هذا التأثير، مما يجعل المرأة مفهوما متعلِّقا بالحركة والنشاط، دون أيّ ذِكرٍ لنوع أو نوعية هذا النّشاط أصلا؛ وعليه إن ما اعتبرنا الألم نوع من الأنشطة الإنسانية – ولو أنَّه غير مستحب – فإنَّ الأنثى التي تؤثر في الرَّجُل/الذكر، ولو على سبيل الألم، هي امرأة بالمنظور العملي، وبالتالي هي أنثى وظيفية! حيث يتَّصل عملها بالمشاعر "السلبية" أوَّلاً وأخيرا.

[4] المصدر نفسه، ص: 564.

كلما اكتسبت مرسيانا قدرة مهما كانت حدَّتها على تحريك مشاعر مَن يحيطون بها، سواء عن طريق السلب أو الايجاب، فهي تكتسب صفة المرأة بشكل مباشر، فالحُكم عليها بهذه الصفة تحديدا، لا يتعلَّق بنوع التأثير، بل بوجوده، وهذا ما يجعل نسبة كبيرة من إناث البشر نساءً، ما دمن قادرات على إصدار هكذا أمور، وهذا بالذات ما هو وارد في حياتنا اليومية، حيث يتعرَّض الرَّجُل/الذكر إلى الكثير من التأثيرات، فيقاوم بعضها، ويستقبل بعضها بكلِّ ما له من أمل، ليجد نفسه بين مزيج رهيب من التأثيرات التي غالبا ما تخرج من تحت سيطرته، وهي علامات توصل إلى أحكام كثيرة تجتمع في جسد مرسيانا المعنوي، لتجعل منها امرأة؛ حتى التأثيرات البسيطة هي ضمن هذا الموضوع، حيث يكون من المهمّ إصدار ابتسامة ولو بسيطة عندما تهلُّ عليك مرسيانا بهيبتها الأنثوية، ويكون عليك أن تقف مذهولا أمام تناقضاتها وتضادها المنسجميْن مع حياتها المضطربة، بينما يبدو اضطرابها كقطعة موسيقية تتكرَّر في كلِّ مرَّة، فاسحة المجال أمامك للتعبير والانجراف باتجاه تقديرها، حتَّى ولو آلمتني وآذتني بشكل متوحش أحيانا؛ هي المرأة.

تؤمن المرأة بأنَّها ذكية جدًّا، خاصة في تعاملها مع الرَّجُل، مع رجلها، مهما بلغ ذكاءه فهي تظهر بتلك الأنفة المخفية، محاولة إحاطة هدفها الذكوري بما تسميه هي: ترويضه، وهي قيمة تتقنها هي لوحدها، مستعملة أثناء تلقينها هذه العملية لما يمكِّنها من تحقيق ما هي بصدد انجازه، استعمال المناورة عموما، الغواية، اللف والدوران، والمكر الخبيث والمستتر بطريقة سريَّة للغاية، إلى جانب إتقانها للعب دور الضحية بشكل يعجز عنه حتى من يلاقي شهرة لا حدود لها على أرض هوليود، وبعدما تقف لوحدها أمام ذاتها محققة كل ما أرادته من سلطان على ذكرها بهذه الأشكال المنكَرَة ذاتيا وإنسانيا والمقبولة عاطفيا وأنثويا، فإنَّها تبكي بمرارة، تبكي انتقامها هي مِن كلِّ الرِّجال، عبر ظلم تسببه لرجُل واحد، عبر سجنه في كنفها بشكل قهري وغير مبرر أبدا، وكأنَّها تلعب دور الفاتنة القاتلة على مرِّ الأيَّام والسنين، هي كذلك من غير أيَّة شفقة، ولا أيِّ ضرر مع سبق الإصرار والإجرام، إجرام بنكهة لطيفة في حقِّ الذات المذكَّرة عبر التلاعب بقوى ومكامن الشر، حيث يكون السوط الاجتماعي بيد الأنثى، تسقطه على ظهر ذكرها الذي يصرخ من شدَّة الأنين، ومع ذلك هي تواصل جلدَه بلا هوادة، وبلا ندم.

وليكون المشهد الأنثوي والاحتلال الناعم لكلِّ رجُل مبررا من طرف النساء، فإنَّهنَّ يعمدن إلى اختراع خرافة "الحُب"، وقد دعم ذلك الشعراء والغاوون من الهاربين من أنفسهم، والآمنون في أحضان جلاَّديهم، وهو بالمناسبة، وعلى حسب معرفتي الشخصية به، هو أمر يبعث على الاستفزاز، استفزاز للكيان الوجداني، ليسير المرء بشكل مضاد لروحه، وهذا بالذات ما يجعل السجن الذي يدخله الذكر طواعية، هو سجن المشاعر، هو محكم الإغلاق بكلمات القصائد وقضبان الألحان والرقصات، هو وهميٌّ لدرجة أنَّ أفلاما كثيرة ألغت مبارزة الكبرياء في مواجهة الضمير الذي ينادي بحياة الرِّجال، ومع ذلك تبقى المرأة هي التي تدير الحياة رغم ادِّعائها للعكس، أذكِّر من جديد بموقفي الشخصي، ولكنَّ الوقائع على الأرض تخطُّ نصوصا بلغات كثيرة ومعاني واحدة، لا يخطئها عقل فَطِن، فأنا لا أهاجم سوى التصرفات، كون أنَّ النوايا مغيَّبة عن الإدراك، وهذا بالذات ما يجعل المرأة هي الجلاَّد الخفيّ، السّجان الذي لا يعيش سوى بين ظلام دهاليز الوسواس النَّفسي لكلِّ أنثى، حيث تبلغ المناكفة أوجَّها، وهي تعود في كلِّ لحظة إلى مقامها المعتاد، لتضيع أحكام المقارنات بين صفحات تاريخ كتبته النّساء بأيادٍ ذكورية.

ألسنُ الحال لا تعبّر عن الحقيقي من الحال، هي أسرار، ليست كالأسرار، هي مكامن أغلقت وغلِّفت بشكل حاد، وجعلت كل مُعارض مذنب في حقها مغلوبا على أمره، إنَّها المرأة التي ادَّعت الحب فظلمت، وادَّعت الحنان فكانت قاسية، وادَّعت الأمومة والزوجية والوفاء، فكانت عسكريا في ثكنة البغاء، بينما يبقى الرّجُل متفرجا على حاله التعيسة، يحاول بعض اليقظين من الذكور مناجاة المأساة، ثم لا يلبثون أن يستسلموا أمام أيَّام دعَّمت الموقف الأنثوي بشكل لا جدال فيه، فراحت كلَّ محاولة لتحرير الرَّجُل من عبودية الأعضاء الأنثوية ضربا من المستحيلات، وهذا أمر قد استعصى على الكثيرين، على اختلافهم، إلاَّ أنَّهم بقوا ضمن دائرة العدول عن التقاط أفق حرّ، يكون منفذا للرجُل من أجل الهروب من الظلم، أصلا لا يسمى ظلما، بل إنَّه يُتَّهم هو بالذات بذلك الظلم، على ناصية: ضربني وبكى – سبقني واشتكى، أو بالأحرى: ضربتني وبكت – سبقتني واشتكت، هو كتحريف الحرف عن رسمه، وسلخه عن معناه، وإبقاء الرجُل في ملابس بيض مخطوطة بالسواد، ملابس السجناء.

في العرف والتقليد الجزائري، العلاقة الشرعية والقانونية بين الرّجُل/الذكر والمرأة/الأنثى، هي تلك التي تسمى بالزواج، حيث

تصبح المرأة حاملة للقب: زوجة، وهذا ظاهرا يبدو عقلانيا ومقبولا، لكن أن تلمس عوائق التقاء إثنيْن تحت مظلة ما يسميه الجزائريون بالزواج، فأنت تلمس ما صار شبه مستحيل للشاب اليافع وأمام الفتاة الصافية، هذا جعل الزواج مرتبطا بالعرف والتقليد وبالتالي: بالممنوع الجنسي، ليضرَب الجزائري في ضرورته البيولوجية، وهي قيمة اجتماعية فلتت من كل الحواشي الروحية المقبولة لدى أيّ من البشر، ولكن! ما أراه غير مقبول لي في منطقي المغرور أيضا، ليس دفاعا عن المرأة وإنَّما تأمُّلا مني في حالة المرأة أو الزوجة الجزائرية، فإنَّ المعاملة الخاصة بها هي كما يلي: "إن لم تكن الزوجة لدى زوجها موقع القبول والرضا، وظهر منها ما يشينها، فإنَّه يكتب إليها ورقة طلاقها ويخرجها من منزله"[5].

هذا هو الأساس الذي يرى فيه الرَّجُل الجزائري ذاته فيه، استعباد الزوجة، وعندما لا تلائمه مستعبدَته، يقوم بتعنيفها بشكل مختلف تماما عمَّا يدّعيه، وهي أمور مؤسفة بقدر ما هي تضر بالكيان المعنوي لكليْهما، المرأة كونها ألغيَت بشكل "مقبول" اجتماعيا على الطريقة الجزائرية، ومرفوض إنسانيا على الطريقة العالمية، والأكثر أسفا حين نلمس انصياع الآباء لسياط المجتمع

[5] سفر التثنية، الإصحاح رقم: 24.

الجزائري، فيورِّثون نقمة العبودية لبناتهم، دون أن أنسى الضرر الذي يلحقه بالرّجُل، والذي تدفعه هذه العقلية لفقدان رجولته أمام زوجته، أي أنَّ هذا كلَّه مردُّه إلى السلطة التي تدير بيت الزوجية والمشروع الاجتماعي ككل، تصبح بيد الرَّجُل الذي تحوَّل إلى ذكر تماما، ومن غير دراية منه، أو لعجز أو استسلام من روحه بشكل خفي، يصبح الرَّجُل/الذكر متسلِّطا بشكل مطلق، وبالتالي فاسدا بشكل أكثر بشاعة، لأنَّه تحوَّل إلى ديكتاتور للجنس، جاف على المستوى العاطفي باتجاه زوجته، وحتى الطيّب مع زوجته في هذا المجتمع الجزائري المهترئ، إمَّا يستقيل من رجولته وذكورته معا، أو يحاول نفض ريش وهمه عبر "الإحسان" للمرأة، من باب الشفقة عليها فقط، وهذه الحالات أشدُّ قسوة عليهما معا، لكونهما من بني الإنسان معا أيضا.

فمعنى أن تكون مرسيانا زوجة، هو أن ترضى بأوامر ذكرها الفقير، أن تعامله بكلمة: حاضر سيدي، وهي علاقة مبنية على الوصاية اللقيطة، حتى أنَّ كافة الأساليب المتَّبعة من أجل تسيير علاقة تحت غطاء زوجية كهذه، تتحوَّل إلى علاقة تشبه جهاز الحاسوب الذي يدار بالفأرة المتصلة به، فالفأرة تلك هي التي تنفذ الأوامر السريعة عند اتصالها بالنظام الإلكترو/مغناطيسي

الرقمي، وبعملية سريعة تنفِّذ الأوامر مهما كانت طبيعتها دون نقاش.

أحيانا يصبح النقاش يشكل صور العطب التي توجَّب إصلاحه، وإن عجز الذكر عن إصلاحه، سيجد حلاً بسيطا وسريعا، هو استبدال الفأرة، ليضمن تنفيذ الأوامر عبر حاسوبه، فينتج قطْع الرابطة بين الفأرة والحاسوب بواسطة تطليقها، وهي بالأساس عملية مرعبة لأنَّني شخصيا لا استطيع حتى استبدال فأرة إلكترونية اعتدتُ على استخدامها، فما بالي استطيع استبدال كيان لطيف مثل المرأة، ذلك الجسد الروحي والجسمي الذي شاركني جزءا هاما من حياتي، ولو اختصر ذاك كلَّه لدى العقل في الإيجاب بدل التجاوب، إلاَّ أنَّ مرسيانا ستبقى، وبطريقتها الخاصة جدًّا، بعيدا عن منطق الفأرة.

عندما نذكر كلمة المرأة، فإنَّنا نضع أصابعنا على مكمن احدى المشاكل، المرأة هي مشكلة عند الكثير من الجزائريين، حتى أنَّ الكثير منهم يريد ولدا ذكرا بدل الأنثى، كونه يعتبر الأنثى مهما فعلت هي مشكلة إضافية له في حياته، وبما أنَّ المرأة هي المشكلة عند هؤلاء، علينا ألاَّ نبتعد عن الرجُل، كونه مشكلة أيضا بالنسبة للمرأة ذاتها، وهذه النوعية من المشاكل، كلُّ جانب ينظر إليها وفق

تصوُّر معيَّن، وفي الجانب الواحد هناك الكثير من الأطراف التي تنظر إلى المشكلة نفسها بشكل ليس مفهوما، لهذا "ليست مشكلة المرأة شيئا نبحثه منفردا عن مشكلة الرجُل، فهما يشكلان في حقيقتهما مشكلة واحدة، هي مشكلة الفرد في المجتمع"[6]، وهذا يعطي الصفة الفردية للمرأة، بمعنى آخر، المرأة هي فرد من هذا الوسط الثقافي، وهي التي تتأثر به مثلما تؤثر فيه، ليلقنها هذا الوسط دروسا كثيرة، منها على سبيل المثال: هي أضعف من الرَّجُل ظاهرا، بينما مع الوقت، ووفق التجربة الشخصية، ستجد ذاتها أقوى منه في مواقف بعينها، وقد تتطوَّر إلى يقين لديها أنَّها أقوى منه بكثير، ليس عاطفيا فقط، كما هو شائع في الثقافة الجزائرية، وإنَّما هي أقوى منه في كلِّ زوايا الحياة، بلا حصر أو تحديد.

فردية المرأة هذه هي منبوذة في الجزائر، كون أنَّه يُنظر إليها على أنَّها لا تنفصل عن العائلة، التي ولدت فيها أو التي تشكلها مع بعلها/زوجها، وهي وضعية رغم أنَّها تضعها في ظل الحماية، حماية بلقب: ابنة فلان أو بلقب: زوجة فلان – السيِّدَة فلانة، إلاَّ أنَّها تحرمها من حريَّة استقلال كيانها الذاتي، في التعبير عن رغباتها،

[6] مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عمر مسقاوي، دار الوعي – الجزائر، ط: 11، 2012م، ص: 123.

تطلُّعاتها وأحلامها، كونها تأخذ دائما صيغة التابع أو اللاحقة في المتن الإنساني، وهذا بالضبط ما يجعل المرأة الجزائرية في صراع دائم، تدخله منذ أوَّل لطمة وعي تصل إليها، مما ينعكس على وجودها النفسي ككل، فتصبح إمَّا ماكرة بشكل كبير، وغير ملفت للانتباه، أو منبوذة من طرف هذه البيئة الذكورية المحيطة بها، في إعادة تكرار استخدام السلطة الذكورية المفرطة على الجانب النسوي، وهي أبشع التصرفات التي تجد الكثير من المبررات والشرعية بلا أيِّ سند عقلي ترتكز عليه.

موضوع الفردية هو ما يجب أن نناقشه في ظل موضوع المواطنة، وللتاريخ أستطيع الاعتراف بأنني شخصيا لا أشعر بأنَّني مواطن جزائري بحق، رغم أنَّني استعمل عبارة "مواطن جزائري" كثيرا في حياتي اليومية، فما بال المرأة إذن؟

لا تدرك ولا تبلغ المرأة درجة الفردية، إلاَّ إذا تمَّ الاتفاق معها على استقلاليتها، وتحوّلها من مركز استقبال وقبول أوامر الرجُل/الذكر في العائلة مثلا، إلى مشاركته صناعة هذه الأوامر، مع جرِّ الرجُل/الذكر إلى المشاركة في الالتزام بها، وتنفيذها معها، وهي وضعية أتصوَّر أنَّها أرقى من مركز الالتقاء بينهما فقط.

مـن الصـعب إحـداث هـذا التَّحـول، دون أن تمسـح تلـك القابلية لاستقبال آراء الرَّجُل/الذكر لديها أو لها على أنَّها أوامر من السَّـماء يحـرّم مناقشـتها، وهي مشـكلة يعـاني منهـا الرّجُل/الـذكر الجزائري في حدِّ ذاته، لأنَّها تتصل بالأميّة الثقافية، وهذا ما يجعل الفرد في الجزائر، إن ما أدرك قيمته كفرد مستقل عن الوصاية التي تفرضها الأعراف البالية والتقاليد المثقوبة للثقافة الجزائرية عليه، فردا غير قادر على تحقيق وجوده في هذا التّجمع البشري، أي رجُلا غير موجود ديناميكيا في حلقة الجماعة، أو امرأة غير مـؤثرة وغير محدثـة لأيَّـة ردَّة فعـل معترف بهـا علنـا في الجسـد الثقافي/الاجتماعي الجزائري.

لعلَّ مرسيانا هي أولى الفتيات، هي الحرف المؤنَّث في الوجود الـذي يبحـث عـن تفسـير أو تأويـل، عـن فهـم لـدوافع تجمُّـع الرجال/الـذكور حولهـا، حيـث قادهـا تفكيرهـا إلى لغـز واحـد، أو مبدئيا هو واحد، وإن تعدَّدت دوافعهم فإنَّها تخرج من نفق واحد، "وأنَّها جميعها تصدر عن شيء واحد، هو دافع الغريزة الجنسية طبقا لتحليل فرويد (...) ولقد كان هذا التعليل ظاهرا بالنسبة لأولئك الذين يطالبون بخروج المرأة في زينة فاتنة، إذ في ذلك ما يوقظ غرائزهم أو يرضي شهواتهم (...) غير أنَّ أولئك المتمسكين

بإبعاد المرأة عن المجتمع، والمؤمنين بضرورة إبقائها في سجنها التقليدي، قد يبدو في تعليل الدافع النفسي لموقفهم بأنَّه جنسي بعض الغرابة (...) فالغريزة هنا تكلَّمت بلسان آخر"[7]؛ هنا فرق واضح بين من ينصِّبون أنفسهم مدافعين عن المرأة، وهُم يحاولون المطالبة بإعطائها حرية مشؤومة، وبين الذين يحاولون سجنها بشكل تقليدي "ديني" أو "أخلاقي" في العموم، ولكن ما يجمعهم كلّهم هي: "الغريزة الجنسية"، هي الضرورة البيولوجية، والحاجة الجسمية التي تحرِّك العواطف، خاصة ما تعلَّق الأمر بالقانون أو الشريعة، فكلُّ جانب أو لون من ألوان الرجال/الذكور، يرغب في إشباع حاجته تلك من المرأة، ولكن لكلّ منهم أسلوبه وذريعته، شرطه التبريري وعلاقته بعضوه الذكري، وهذا كلّه يرتبط بدافع أقوى، أقوى بكثير من الغريزة، وهو متصل بالـ: أنا، وبطريقة مباشرة، يشترك فيه كلُّ بشريّ حتى المرأة ذاتها، ويقود إلى الغريزة الجنسية لا محالة، حيث تكوّن هذه الأخيرة الواسطة فقط، ألا وهي الشهوة.

الغريب في الأمر، أنَّ الشهوة تنصبغ بالكثير من الأثواب، لكنَّها تبقي على التأثير ذاته، من حيث أنَّ المشروع الإنساني متفق

[7] مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص: 123-124.

على كسر الأعراف حينما يتعلَّق الأمر بالشهوة، رغم تظاهرهم بشكل خفي، بأنَّهم يحترمون المتَّفق عليه اجتماعيا، قانونيا ودينيا في هذا الأمر بالتحديد، كون أنَّ الفرق بين السجن التقليدي والعلاقة المعاصرة، ما هو سوى تلك الثقافة الجنسية، التي يكتسبها الفرد عند بلوغ تمامه، فيحتاج إلى مَن يساعده على إشباع شهوته عبر أدائه الغريزي؛ وفي الجزائر، الأمر نفسه والتقدير نفسه، والصرامة نفسها، مع أنَّ القسوة تلفُّ الحياة برمَّتها.

هذا ما يجعل الموضوع يقتات من القسوة ذاتها عند المرأة/الأنثى بالقدر نفسه، وبالمستوى نفسه بالنسبة للرجُل/الذكر، والأقسى أنَّ هناك مَن يعلم هذا ويرفع صوته عاليا دفاعا عن مرسيانا الجزائرية، مطالبا العالَم كلَّه بتحريرها من سجنها هذا، في الوقت الذي لا يعرف أحد ما يحدث في سجن التقاليد للرجُل/الذكر الجزائري في الموضوع نفسه، ومَن يعلمون هذا لا يتكلَّمون بسبب أنفة زائفة أو غرور مفضوح، وهذه القضية مأساوية جدًّا، فقد أخذت أبعادا خطيرة ومؤلمة، لأنَّ الشهوة لا ترحم أحدا، ولأنَّ الغريزة مدمِّرة؛ هذه العوامل مجتمعة هي ما جعل الشاب الجزائري يقف لساعات في الشارع معاكسًا

حتى إناث القطط المارة أمامه، وهو الذي جعل مرسيانا الجزائرية تحلم بكاليفورنيا وباريس، نيودلهي وإسطنبول، عبر شاشات مختلفة الأحجام والنوعية، وعبر الوسائط الرقمية المختلفة.

بلغ الإشكال أبعادا بعيدة من حيث السبب والمؤثر مثل الاستجابة والحلول المفقودة، لا أخفي أنني أنا أعاني أيضا من المعاناة ذاتها في هذه البيئة المحرومة، والمتطلبة بشكل كبير، هذا بالذات ما يجعل المرأة تتحوَّل من كيان له معنوياته الخاصة، إلى كيان يتنازل عن كلِّ شيء أمام سلطة الغريزة وسلطانها، خاصة حقها المعنوي، من أجل إرضاء شهواتها التي تسجنها في ذلك السجن الذي سبقها إليه الرَّجُل ذاته، فكم يكون موقف كهذا صعبا على كلا الطرفيْن؟ هو الأصعب على مرسيانا بكثير.

قديما كان هناك طبقتيْن من سكان الجزائر، فقد كان هناك معمِّرين وأنديجان، بينما بعد استقلال الأرض الجزائرية لم يحدث فرق كبير في المعادلة الاجتماعية تلك، إذْ هناك الأنديجان وهُم الأغلبية كالعادة، بينما أُستبدل المعمِّرون بلقطاء الكولون، بحيث صار هناك فئتيْن من سكان هذه الأرض: الجزائريون والأنديجان، وعليه فهذه الطبقة الأخيرة هي ذلك الذي سمَّاه أحد الجزائريين بالزوالي، وجمعهم هو زوالية، حيث يكوِّنون بهذا أغلب

الأفراد، بينما الممارسة في إطار انتزاع الحقوق انتزاعا، هي التي تبيّن إلى أيِّ طبقة أنت تنتمي، فهل أنت هو الجزائري؟ أم أنت هو الأنديجان؟

الأمر نفسه ينسحب على الأفراد كلّهم، حتى على النساء، لأنَّ نساء الأنديجان هنّ ذوات صفحات واضحة، وفي بعض المناطق يسمونهنَّ بـ: لْعْرُوبية (بنت الريف)، وهنَّ ملتزمات، محتشمات، يجدن الطهي وأعمال البيت، إضافة إلى الزراعة، الخياطة والطرز، وحتى النسيج وغزل الصوف، بينما وبالمقابل هناك نساء جزائريات (سيفيليزي/الحضريات) وهنَّ اللائي يقمن فقط بمشاهدة الشاشات وزيارة قاعات الشاي والنوادي، لهنَّ بعض النصيب من الفرنسية المقلوبة التي تجعلهنَّ يفتخرن بها، وإن وجدن أنفسهنَّ في حضرة أحد الفرنسيين، فإنَّهنَّ يقمن بتلوين أحاديثهنَّ ببعض المفردات العاميَّة بالإضافة إلى العربية/العامية التي تغلب عليها قلب القاف ألِفًا، فهنَّ شبه أوربيات، بل لم يأخذن من أوربا سوى المظهر الخارجي وقلَّة الأدب، بالإضافة إلى رغد العيش الفاحش، وبعض الممارسات الانتهازية، ولهنَّ في هذا كلِّه تبرير واحد، ألا وهو الموضة، فكلُّ يوم هو يمثِّل تحديا جديدا أمام مرسيانا، لا يحمل سوى الجديد، فيحاول بلغة لا يفهمها

الكثير من الناس إيصال ذلك اللغز المدفون داخل الصدور، وهي طريقة بالغة الأثر، حين تأخذ الحياة مجرى آخر، لتصبح الأيَّام بعدها أكثر قيمة، وأكثر جلاء ووضوحا، لأنَّ مرسيانا هي الأخت البكر لعذاب الإنسان، وهي ذلك السَّراب الذي ألغاه الجميع، بحجَّة أنَّ له وجودا يختلف عن وجود الكلّ، وهذا بالذات ما يجعل الحياة شعبة أخرى من شعب النجاة، ليحاول الإنسان أن يكفل حياته منذ القديم، وهو الذي تدرج عبر ذلك بشكل كامل، هو أساسا لا يجد أمامه ما يجعله يتصوَّر أمورا جديدة، فلا يحيط بذلك بشكل حصري، هذا ما يجعل الأمر يختلط تماما على البشر، ليضعهم بين الوهم والفهم، لأنَّ الأوَّل سائد، والثاني غير مقبول، خاصة إن ما تعلَّق الأمر كلَّه بسيادة العقل وفحوى الروح، فتنعدم بين كلِّ هذه التفاصيل أسباب التقدُّم نحو باب المغامرين، لتنتظر اللحظة آخر تعبير عما اختلج نفسية ابنة الأنديجان، وهي تعلم مسبقا مصيرها المجهول والعسير، تعلم أنَّ جهلها هذا بحياتها سببه وصمة لم تشارك هي أبدا في رسمها، ولم يكن لها أبدا الحق في القرار، بينما كان لها دائما الحق في تعقيد الأمور وحيثياتها، والسخرية ذاتيا وطواعية من ذاتها، إلى درجة بلغت فيه الشك في إنسانيتها، لتستقيل بشكل بطيء وأكثر تأقلما

من تلك النماذج الجاهزة، فتعطيها ميزتها الوحيدة وتأخذ منها حياتها بالكامل، فمتى كان الحيوان ثمنا لخسارة الحياة؟

لا فائدة مِن ما قررته روما في سالف الأزمان، ثمَّ أغلقت الملف كما ورد عند قدِّيس عنابة؛ هناك فرق كبير بين امرأة تحاول انتشال ما هو يعتبر بقايا للرجُل، وبين أخرى تتذمَّر منه، كصنيعة وحيدة لديها، تجيدها بلا ملل، هناك فرق كبير جدا بين الاثنتيْن، لأنَّ هناك من بعيد جنس واحد، وكلَّما اقتربتَ منه أكثر، ظهر لك الفرق بشكل أرقى.

من الصعب أن يدرك البشر، من الصعب أن يولدوا دائما، وأن يحملوا همومهم الفضية على صحونهم الذهبية (هكذا هُم لوحدهم يعتقدون)، فلطالما غمرت الأشواك الحناجر وهي تصدح بظلام الليل، وهكذا كان للجميع نصيب على حسب رأيه الخاص، وكان لكلِّ إنسان مصطلحه للتعبير عن مساره المتميِّز، بالشكل الذي يجعل منه قادرا على طاعة أوامره الخاصة في كلِّ الظروف والأزمان، بينما هناك في كلِّ زمن، هناك مَن يعتقدون بامتلاك الحقيقة من بين ظنون الإنسان، هناك مَن يصيّر لعابه بين فكيْه، ليستسيغه كعسل بديل عنه، حيث كلّ الأحلام تذوب فيه، لأخذه ذلك الاعتزاز الوهمي بذاته، وذلك الغلو الطافح بنفسه، بعدها

يجلس ضاحكا وساخرا من أعماقه، تلك التي ترى في أنَّ لغز الحياة لا يتعدى حدود اللعاب لا حدَّ العسل. يا أبناء الشمال هل هناك من ينقذ البقية؟

هي الأمور نفسها مع اختلاف عميق في إيمان الأفراد بمجموعاتهم وأوجه نظرهم، فهناك عمق في القضايا كلَّها، وهناك رؤيا لكل عمق تميّزه، وما هو باق عند الأفراد، هو مسعى وجودهم، حيث ينفرد الجميع عن الجميع، وينفرد الفرد ضمن الجميع، وهذا ما يعتبره الإنسان لغزا، يجري ضمن إطار محاولة فك رمزه، وتفسير تشفيره، بهدف وحيد، ألا وهو محاولة الوصول إلى تعاليم الذات التي تبني خصوصيتها وفق قواعد ذاتية، وإن ما كانت قاصرة في ذاتها، فإنَّها ستبني هذه التعاليم وفق نظرتها التي تدرسها مع الآخرين، وهنا تكمن المفارقات، لأنَّ البعض لا يجيد سوى استنساخ بعض الأفكار، تلك التي تستقيها من الخارج، وكأنَّها وحي يوحى إليه، ليؤمن بها، وبعدها يسبح في فضائها بعقيدة راسخة لديه، بأنَّه مميَّز، بأنَّه لا يدخل ضمن دائرة الظلام.

هناك أمر عميق يحذو هذه القطع ويحرِّكها في وقت واحد، هناك قيمة ما تختفي وراء هذا الضجيج، وعليه يبقى الفرد متعاليا عن نفسه، وأكثر استعلاء عن غيره، وهو ينظر واقفا أمام

مرآة المجتمع، باحثا عن صورة له ضمنها، وإن ما جعلت منه مهزوز الصورة أو غريبا عن ذاته هو، فإنه يصبح بذلك شخصا متوحشا، يحاول رسم تلك الصورة من جديد، بشكل آخر، هو يراه مناسبا، حتى ولو لم يكن هذا الأسلوب مطابقا للواقع، وواقعا على الأرض، حيث تتحرّك القطع كلّها، في الاتجاه نفسه، لتصبح بهذا التموضع خادمة لإرادة بشرية، بدل أن تخدم قوانين الحياة، وهذا بالذات، ما يجعل الأمور تكون عصية على الأرض عند البعض، كونهم لا يرغبون في تصديق الحياة، بدل الإيمان بالموت، وهذا أمر يجعل الإنسان بين عدَّة خيارات، أقربها إلى التطبيق، هو ذلك الخيار الأبعد عن روحه وآماله، ليكون في آخر الأمر، مثل قِردٍ يلبس بذلة ويحاول أن يمشي متفاخرا على طريقة الوزراء، بل ويطالب مَن هُم حوله بأن يكونوا منسقين له، مستقبلين لروحه، وكأنَّها قضاء وقَدَر، وكأنَّها لغة هو مخترعها، وهو صاحب اليد العليا على ظروف هو ذاته لا يجيد التصرُّف حيالها سوى كما يتصرَّفُ العبيد أمام أسيادهم، بل ربَّما بل ربَّما بصورة أبشع بكثير، لأنَّه نادرا ما تجد الإنسان باحثا في الجزائر الموغلة في الجزائرية كما أخبرني أحد المجانين يوما: "هناك فرق كبير بين المتعلِّم والمتعيِّم".

يعني هذا أنّ هناك فرقا، صار يدركه حتى المجنون، بين طلاّب العلوم والفلسفات، حيث صاروا يدركون بأنَّ الفكر هو وليد التفكير، وهو صانع الأمم، وبالمقابل لم يعد ذلك الدور المهمُّ لصناعة المفكرين والمفكِّرات، موجودا ضمن صلاحيات المدرسة الجزائرية، المجاميع العلمية الجزائرية وحتى الأكاديميات الجزائرية، لهذا كان من المهمّ الإشارة لمثل هذه الحالات، حيث تعتبر الملجأ الوحيد الذي يمكِّن الفرد البشري من العبور انطلاقا من الأنديجان ووصولا ليكون جزائريا، والعكس أيضا قابل للقبول به؛ هنا! تظهر لغة الاشتغال الفكري على الإبداع والخوض في ملابسات الإنسان المفكِّر، حيث يصبح من الضروري التسليم بأنَّ الفرد إن ما كان عبارة عن أنديجان فله إمكانية الوصول إلى انتزاع حقوقه، وبالتالي يصبح جزائريا، وهذا بالذات ما يجعل الإنسان يقوّمُ ذاته اعتمادا على مكوّناته الروحية وما هو بين يديْه من جملة ثقافات ومأثورات تحمل علامات الوجود المحرِّك للفكر من أجل تحسين اليومي بالنسبة للأنديجان، فإنَّه وعبر التسريبات المعرفية التي يسعى إليها، وبالاعتماد على أفكاره المختلفة، فإنَّه يصل إلى درجة الوثوق في ذاته، والاعتماد على نفسه، من أجل تحسين مشروعه الخاص، وبالتالي الوصول إلى مستوى يتفوَّق به

حتى على الجزائري/القرصان، ليستغلّ معارفه من أجل تأسيس مدركاته التي تمكّنه من تغيير وقائعه وحياته، حيث يصبح من المهمّ له أن يحمل روحا ناقدة، مفكِّرة ومشغولة بطريقة التطوير عبر إقصاء كلِّ النزاعات التي يحاول كلُّ جزائري إثارتها وتثويرها من حوله، لكن عبر الوهم دون العِلْم، وبهذا تصبح إمكانية انتقال الأنديجان إلى طبقة أعلى واردة جدّا، إن ما فتح عقله وشعوره على الحياة، وأبدع طرقا تتناسب مع الذات، بصورة تطرحه أمام الواقع بشكل ديناميكي أكثر، فيمكن إرجاع هذا كلَّه إلى سهولة الوقوف على الإرادة التي يتشارك فيها البشر مع اختلافهم في مستوى حياتها، وهذا بالذات ما يفسِّر الانتقال الذي سبق وأن تمت الإشارة إليه، أين يتعيَّن على الإنسان السير بجانب الأخطاء التي تحوَّلت إلى لا-مقبولات، عبر اعتماده على نماذج جاهزة من مفتريات لا معقول لها، لتستند على هذه الحبكة العلمية/الفلسفية مجموعة من المقولات، كلَّما نجح الأنديجان في تحويلها إلى صيغة أرقى من واقعه المعاش، فإنَّه يترك دائرة حضوره المفروض، ليلتحق بدائرة حضور أخرى، هي تلك التي صوِّرت له على أنَّها حكرا على البعض دون الآخرين، وهي مسارات يمكن الاعتماد عليها من أجل إحداث تغيير جذري في الزمن والقَدَر

معًا، ليس من السهل أبدا أن يخطو الفرد خطوات بطريقة مختلفة عن تلك المتعارف عليها في الجزائر، ومن الخطير أن يُقدِم على ذلك طمعا منه في إزالة غبار الأيَّام والاعتماد على مسلك يعود عليه بإجراءات الفهم والارتقاء، يعود عليه بتقدير الذات وعدم الالتفات إلى كلِّ ما تمَّ غرسه فيه مِن قِبَل ذلك من صفات؛ يظهر الجشع البشري في لحظات الضجة، فيعتقد البعض أنَّ لا أحد يسمعهم، ليحدثوا بعض الأنين أو ليوجِّهوا ضربات تحت مظلة العشوائية السائدة، وهذا أحد أصناف الاحتيال، حيث يكون الإنسان في أقصى لعبه الخفية، يراوغ بشكل جحيمي، ليصوّر لذاته أنَّه ماكر، وأيُّ مكر؟ فهناك لغة تخاطب النزعة الأنانية في الأفراد، لتجعل من حساء الأيَّام مستساغا بشكل قائم على نوع معيَّنٍ من التعداد الجمالي المباشر، وهي قيمة أنقى بكثير من السبل المتواجدة بجانب التحريات النفسية الداخلية، أي أنَّ لها قدرة على توظيف المسلك العام لأيٍّ من الحركة الروحية، لتصبح في آخر المطاف عبارة عن تشفير مغلق، يحوز على كلمة تعاد كلّ مرة، لتسيّر اللطمة العمودية، وتعيد تعليل وجهات النظر كلِّها، في إطار غير متوافق.

لطالما كان الإنسان مُخفيا لجانبه القبيح بجماله، لطالما جعل من هذه المقتنيات أمرا لا يحوز على رضاه دائما، أين يصبح من الضروري إقامة علاقات متوازية مع حضوره الكثيف، ذلك المجمَّل بأساليب ليست مباشرة أبدا، أين يعادل الجميع المعادلة نفسها، لكن! لكلِّ جانب منها رقمها المختلف، فهناك تواصل بين الذات والانعزال، بين الأنانية ومحاولة تغطيتها بهاجس المحبة، وهذا كلَّه يصبُّ في مصبٍّ واحد، يكون حامله غير شاذ عن كافة مستلزمات الهدوء البشري، فما أبشع القربان المبتسم، رغم ما يحدثه من دماء وألم، إلاّ أنَّه يبتسم ويضحك، كهلوان سفَّاح، يرسم الابتسامة على شفاه البراءة، ثمَّ يقتلها بعد ذلك.

قد يختفي الليل بطلوع الفجر، وقد ينقلب الظَّلام نورا بحلول ضوء الشَّمس، لكن ظلمات النَّفس لا تختفي ولا تنطفئ، قد تغيب بحضور الابتسامة أو حلول اللُّطف، لكنها تبقى متخفية في جانب عميق من الروح، تنتظر الفرصة فقط لتخرج وتلتهم كلَّ ما تصادفه في طريقها، هناك بين أغصان الشجرة الإنسانية طيورا بريئة في أعشاشها، يتربّصُ بها ثعبان يدَّعي النعومة بإظهار جلده المزيَّن بالألوان وذا ملمس ناعم أيضا، لكنَّه بالمقابل، هو ينتظر

أوَّل ما يسمح له بالتهامها، لينفث فيها سمَّه بلا رحمة، كذلك الإنسان هو أيضا يخفي عكس ما يدَّعيه.

هناك حمولة ما بالقرب من الجانب المبهر للإنسان، هناك فراغ ما، يترك للعبث مجالا للاستقرار مؤقتا ضمنه، ليتحوَّل بشكل ما إلى عقل مدمِّر، وهي أمور تتخذ من الصَّفاء الخاص بالنفس البشرية وميثاقيتها إضافة إلى فضيلتها وكلُّ ما يتَّصل بخيرها مبررات للسيطرة والجبروت بأشكال سلسة، وهي طريقة تستعملها المرأة الجزائرية "الذكية" بشكل مبهر، أي أنَّها تعوِّضُ ضعفها الاجتماعي بمكرها الإنساني، حتَّى أنَّها تجعل من القضاء النفسي الذي يغطي ضميرها "الساذج"، وسيلة لتقديم كبريات أعمالها وتطبيق حيلها في هذا المجال؛ أذكر هنا هذا بالاعتماد على تصرفات المرأة الجزائرية لا لأنَّه أحد مركبات شخصيتها الأساسية، وإنَّما لأنَّ ظروفا معيَّنة، جعلتها تعيش بهذا الشَّكل، معتمدة على ذلك بطريقة الابهار والابتزاز المعنوي من أجل الوصول إلى مرادها من ذكرها بالخصوص، وهي مناورة تجعل من الفرد البشري ثعبانا أمام عش البراءة، بل وقد يحوِّل البراءة إلى سمٍّ يختفي وراء الشعارات التي تشكِّل ألوان الثعبان الجميلة

والتي تسرُّ الناظر إليها، أين يصبح من الضروري استحضار العقل من أجل فصل الأبيض عن الأسود المؤنَّثَيْن.

يقول أحد الجزائريين: "أنا أصرف مالي عليهم بسبب شفاعة أمّهم لهم"، وهو تعبير واضح اللهجة بأنَّ مكانة المرأة الجزائرية لدى بعض الجزائريين قد وصلت إلى درجة الشفاعة، أي أنَّها صارت مرجعية يمكن أن تطهّر بعض البشر من الذنوب، أو بمثابة وليّ صالح يتبرّك به، وهذه صفة نادرة إن ما أمعنّا الملاحظة في الجانب الجميل من الموضوع، فهذا الجزائري، له من المصداقية أن جعل المرأة التي هي تحت "وصايته" بالمنظور الاجتماعي الجزائري، كائنا بالنسبة إليه، هو الذي يعتبر كوسيلة للشورى، حيث ذهب الأمر به إلى أن سمح لها بإدخال دائرته بعض "المشاغبين" من قردة/الظهر في عرفه الخاص، وهو راض تماما عن ذلك، وهذا بالذات يعتبر نذرا يسيرا من الفلسفات الجزائرية، بحيث أنَّ هذه الفلسفة هي "مِن هذه الفلسفات التي استقيتها مِن الشاشات الالكترونية، أذكر على سبيل المثال الفلسفة الغربية المعاصرة وبالأساس الظواهرية التي كان يدرسنا إيّاها أحد الجهلة الذي يشبه راقصة العمود (strip-teaseuse)[8]، في حين أنَّ الفرق

[8] بودومة عبد القادر

بين هذا الجاهل والراقصة تلك، هو أنَّها تزداد جمالا كلَّما قامت بِنزع احدى قطع ملابسها، بينما هو يزداد قبحا كلَّما أظهر مؤخِّرتَه النتنة."[9]

يشاء الرَّجُل أن يتطرَّف إلى درجة الثمالة، ثمَّ يعود ليلينَ إلى أن يصل إلى عتبة المآل الفكري والفلسفي الجاد، هناك حيث يقبع الفكر، يحاول الإنسان الانسداد بتعريفه للحياة، هناك أين تقع القطرة بعد القطرة، أين تولد الرحمة من عنفوان كلِّ ما هو صلب، فتتراجع إلى غاية أنَّها تصير مراجِعة لحدودها، لتاريخها وصحائف عمقها اللـيِّن، فتستعيد قدرتها على فهم الفرد بشكل أوسع، يوجد في كلِّ مقام نوع من الرَّغد الأثيري للرَّجُل، أينما يحلُّ به المقام، وأينما تقوده الإقامة، تلك المحاولة التي تجعل الإنسان أكثر استقلالية وأكثر تهوُّرًا، ليسميها العالَم الجزائري بالشطارة، وهي كلمة متحرِّكة المعاني، حتى أنَّها صارت بالارتكاز على التبجيل الذي حملته، صارت تحمل معنى الهَدَف لكلِّ الجزائريين، بل إنَّها على فترات قد حملت معاني سلبية، فصار السَّارق الفار من أنياب العدالة ضمنها، وصار المحتال الذي سلب المجتمع قيمة من قيمه أيضا في إطارها، وهذا كلُّه جعلها تستعمل في غير ذلك السياق

[9] مزوار محمد سعيد، قاتلي يتدرَّب في شيكاغو، دار خيال للنشر والترجمة – الجزائر، 2020م، صص: 139-140.

الخلاَّق الذي نبتت فيه، حيث أنَّها حُوِّلت وامتزجت مع بعض الأمور التي استقت منها الشرعية لتكون مقبولة لدى الوسط الجزائري، فكلُّ فرد جزائري يرغب في أن يكون شاطرا، يعني سريع البديهة وحادَّ الذكاء، وهي صفات محببة عند الجميع، فلا يوجد هناك حامل لهذه الصفة سوى إن ما قدَّم خدمة جليلة بالإحسان إلى مشروع "الأمَّة الجزائرية"، هذا الحُلُم الذي يجعل القليل من الجزائريين يهبُّون من أجل تحقيقه، كلٌّ في موقعه، وعلى حسب طاقته، إنَّها علامات على تأشيرات متعدِّدَة الوجود، تحمل التأشير باتجاه واحد، وهو أنَّه على أرض الجزائر لا تزال هناك حياة، ولا يزال هناك أحياء، وكلُّ هذه المقامات التي تتخذ من الجانب الروحي لعلامات البشرية أسبابا متعدِّدَة، تقلِّبُ عناصر الصَّفاء في الأنفس، وتدفع الجزائري نحو تبنِّي صرامة تخدم ما هو بصدد بنائه، وما هو قادر على احتوائه، في شكل مجهول تماما وغير مرغوب فيه بشكل كامل في معظم الأحيان، فهناك أمر يتعدَّى الإحساس والرغبة، حينما يحمل الفرد المفكِّر في داخله عنوان أمَّة مهمومة، لا يسعه تقديم المساعدة لها سوى بالقليل، ولا يقدر على الحذو نحوها سوى كالجريح، لكن من يقدّر المرأة الجزائرية، ورغم أميَّته ربما، فإنَّه سيحمل شأنا عظيما بداخله، لن يفهمه

الكثير ممن هُم حوله، لكنَّهم سيذكرونه بالسوء في حياته وبالتَّمجيد بعد وفاته رغما عنهم! صفاء المزيد بآنية المغيب: يشقُّ الفرد طريقه بعيدا عن كلِّ نداء، فتخالجه أهواؤه التي غارت بطريقة جريئة جدا، لتكشف له عن ذاته بشكل عجيب، وبهذا يكون الحرْفُ كمهرم أبديٍّ يستقي علاجه من قائمة الأدوية الروحية النادرة، حتى يصير الجميع ضمن الكلّ، أمَّا البقية فإنَّها تتبعثر على يد بيضاء للذين أرادوا البقاء بلا دفع الضريبة الاجتماعية، فكان لهُم البقاء بثمن غالي للغاية، لأنَّها القاعدة التي تسري في عروق الإنسانية.

يسافر المرء بروحه كلَّ حين، ويجعل من جنونه حصانا يمتطيه لحظة اللؤم الذي يطفو على سطح نفسه العميقة، لتكون بذلك عبارة عن طفرة للعارفين بما هو قائم على وجه التحديد، وهذا بالذات ما يرفع القيمة الدنيا لمعارف الجميع، إلى مراتب بالغة الغبطة والسُّرور، حيث تكون للفرد البشري لغته الخاصة، تولد بشكل مباشر جدا، وهي التي تحيط به من كلِّ جانب، لتلعب الغريزة لعبتها وبأوامر خفية وسريَّة، بعدها تتحاور الممكنات أمام أعين العامَّة، كمحاولة لتقديم ما يراه الكلّ أمورا لا تتصل بعالم الإنس، سوى من جانب أحادي تماما، بعدها يرتفع العِلم إلى

مرامي التهافت على تقييم القِيَم، وهي بهذه العملية تغلق الأمور أمام ما يتوجَّب الخلوص إليه على سبيل إعادة مزج الكلّي بما هو قابل للتحنيط.

هي قدرة خلاَّقة تقتفي كلَّ أنواع الرغبة العظيمة التي تتكوَّن بداخل الفرد البشري، ثمَّ ترتقي إلى غاية الوصول إلى صروح العقلانية الرغيدة، وهي كلُّها عوالم تستقي مبررات حضورها من حضرَتِها الذاتية، فتعود الطفرة إلى ما وراء الحجاب، إلى ما وراء العقل، إلى بداية ارتكاب الجريمة الروحية، إلى اللحظة التي يحدث فيها الشرخ بين الذات وذاتيتها، لتستوي الأقدار أمام أعين أبناء زومبا بشكل مخيف، ثمَّ تعمد إلى الاتحاد رويدا-رويدا، حتى تبلغ قمم الهمم التي تطل على بحار الشمال، وهي تردد عبارات اليقظة والاستهجان، إلى غاية بلوغ المسار الخفي، إلى درجة أنَّها تبقى وحيدة وهي تحاول أن تسترجع كلَّ أمل في معاودة المكوث على ضفاف قرية الراحة الداخلية، لأنَّها تدرك بأنَّ البقاء يعني الفناء في ثوب آخر مختلف، هي تعلم بأنَّ التحدي هو محرِّكُ الأعمار، وهي تعلم بأنَّ الجميع يدركون بأنَّ الطينة التي تسمى بـ: العدالة، هي تلك اللحظة التي تفرِّق بين الحياة وحياة الموت.

هي الغرابة ترتدي كوفية جزائرية، صفراء بثلاثة وثلاثين دورة، هي العجب على أرض الغريب، حين يهمس العمر في أذن الواقع: أنا راحِل، حين بلغ الصوت مداه وهو يحاول التقليل من شتات الدهشة التي ولدت مع الإنسان، وطافت البلدان كلَّها، لتستوي على وادٍ بأعلى التلال والهضاب، لتجمع بين بريق الصحراء وزرقة المتوسط، هي المروج التي تحتفل بعيدها كلَّ يوم، وهي تنتظر أسفل الحضارة لترتقي إلى قمَّة الإمبراطورية، برضا الامبراطور ذاته، هو أنا وأنتَ، في غفلتنا لحظة الولادة!

هناك أمر ما في قاع الروح يتحرَّك، يعلم بأنّكِ تحدثينه خفية عني، يعلم بأنّ مَن نهيتُك عن الحديث معه هو يحدّثكِ، وبفارق بسيط، ألا وهو: خفية عنّي، أعلمُ بأنَّكِ تعلمين أيضا بأنَّني أعلم بشأن حديثك هذا أيضا، فأصرخ في روحي بأنَّني عالم غريب، مِن عالم عجيب، فأنا مستعدٌّ أن أقتل عقلي وهو ينبهني لأفعالكِ المشينة في حقّي، فقط لأنَّني لا أعلم!!

لأنّكِ ترتكبين تلك الأفعال الرهيبة خفية عني، لا أعلم لما أنا راض بكِ أنت فقط، وكأنَّ أفكاري تمرَّدت علي بخطة محكمة حبكتها أنتِ بعدما شرحتها بشكل متقن، هي لحظاتي التي تجعلني أميل بعيدا، تجعلني أعادي نسبي الفكريَّ بشكل مضاعف،

تجعلني أموت بين "خيانتكِ لي" في خيالي المتباين بشكل مؤلم، أو على التراب بأشكال مؤلمة للغاية، كمصاص دماء يمتصُّ عروقه فقط، كمحاور ومجادل يغزو عقله وفقط، كمصارع يصارع روحه لا غير، أو بتعبير آخر: هي علاقات تتعدَّدُ أمام نفسي لأنّني أنا دون أن أكون أنا ولو شئت لكنت لكنني لا أكون، عندما أسمع صوتكِ أصاب بجنون لا علاقة له بالجنون، ذاك الذي يسكنني ويدهش لوصولكِ إليه، ذلك الذي كان ولا يزال سيلا بلا عتاقة يجرفني إلى منتهى العناد، إلى تبديد تلك السعادة الجوفاء حين أقف على حافة العداء، بل أعادي ذاتي دون تأخير، أحمل سلاسة العنقود وهو يهوي بين حدود حنجرتي الرقيقة، حينها أتساءل: "هل الحب معناه الحذر والألم؟ هل المحبَّة هي التي تجعلني أقترب من معانيها لتحرمني من مضامينها؟" وهذا ما يجعلني أتفوَّق على تفوُّقي الذي لا يراه أحد على أرض القراصنة، على أرض منذ زمن لم يعد لها قرار، على أرض نسيت أو تناست أنّ لي وجودا واعتبار، على أرض ماتت من أجلي ثمَّ استعادت حياتها لقتلي قبل أن تستعيد موتها من جديد، كأنَّها صدأ تلاشى عندما علم أنّني ذهب ثمين، كعرقوب سار بشكل جدّي بعيدا عن كلّ تصعيد، هي حياتي عندما أحاول مناجاة ما يؤلمني فيأبى أن يكون مقدَّسًا من أجلي، أبى أن يحمل

الوجود بعيدا عن الجمود، يأبى أن يكون له حضورا بل غياب يستولي على العمود، هي قدرات الإنسان وهو الطيّعُ أمام رحيل مياه بنما عن تلك القناة، وهو الغريق في مياه النفس حينما سارت على وقع الذات، تسير الرياح حينما تغرف من سلوك المسرَّات، تسير وهي تدري بأنَّ العلاقة الوطيدة بين الوجود وموجودات البشرية مهما كان نوعها في حراك ما، يخضع لقانون ما، وهو يهلك أمام عنقود الغرام قطرة بعد قطرة، كسيل من الكلمات حين يتشكَّل بتراكم اللهجات، كارتفاع يرتقي كلّ يوم، في كلّ لحظة، بإرادة البشر، وفي غفلة المسعور، بتعزيز القَدَر، وبتضليل العبور هناك الكثير ليهرب بعيدا، ليصلى نار الحنين بشكل مباشر، وهو يغرف من تداعيات الصلاة اليقينية للإنسان، وهو يغرق في تدابير الأماكن كلِّها، حين تألَّق غيره وبموارِبة منه، ليكون الجميل في كلّ هذا هي تلك الصنيعة المشهود لها بالتردّد والإقدام، وأيّة قرابة تلك التي تصنعها المسيرة الأبدية للتردد والإجلال، خاصة إن ما تعلّق الأمر بوجود التبشير الرفيع لكل مستلزمات الأرواح، بيتا بعد بيت، سريرا بعد سرير، خطوة بخطوة، لتتألق الموجودات بشكل مفاجئ، ولتعاود المسرّات طرح ما فيها من تركيز فائق الترويح، حيث تنقبض الأرواح بشكل لا شكل له، لا يتشكل سوى إن ما

تجلّى في صورة محفوفة بخط واضح، أين يكون لكافة الأبناء مصائر عريقة، ومباهج رهيفة، أين يكون الجميع ضمن الجميع.

أؤمِنُ...

بأنّ الحياة جدل متصاعد ومتراكم عبر الأيّام، لا يترك جانبا من جوانبها إلاّ ويدفعه نحو معايير بعينها، ليصبّ محتوياته في قالب ثابت ثبوت دوران الأرض وتتابع النهار والليل، إذن الحياة بهذا المعنى هي عبارة عن قدرة فنيَّة خاضعة لقوانين الطبيعة من جهة، وفلتان النفس البشرية من جهات أخرى، وبين هذه وتلك يخضع الجميع دون استثناء، حتى هؤلاء الذين يعتقدون بأنّهم متمردين إلى سلطان المقاييس وإن اختلفت مِن زمن لآخر، ومن أرض لأخرى، لقانون ما، قد يكون أحيانا عبارة عن: لا قانون. لا أزال إلى يومي هذا حيًّا أرزق، ولا أزال حتى زمني هذا طفلا إن ما تعلَّق الأمر بتلك الزاوية القريبة من الأدوات المتداولة جماعيا، لا أزال حتى هذه اللحظة كما كنت دائما، محبا لفترة طلوع الفجر، أعشق من اليوم انقلاب الليل إلى نهار، فتجدني أتلذذ بشكل لا مجال لتصوّره بأنغام النور الصامتة، تلك التي تعلن عن بداية يوم جديد، وفق شروط لا قبَل لنا بها سلفا. بهذا المعنى أيضا سعيتُ جاهدا نحو تشكيل مقياس لكافة الأشياء والظواهر من

حولي، مقياسا خاصا بي وحدي، هو عبارة عن تجلي لذاتي العنيدة حينما تشهد، تشعر أو تدرك متغيّرا ما لمَس بعضا مني، وقد آثرتُ تسمية هذا المقياس بـ: مقياس أمستردام، نسبة إلى تلك العاصمة التجارية لمنطقة الأراضي المنخفضة في أوربا. إذْ لو أردتُ أن أتعرَّف على أحوال القارة العجوز وناسها، فأنا لن أنظر إلى باريس كما يفعل أبناء شمال أفريقيا، ولن أشاهد لندن كما يستشعر أبناء الرمال الشرقية، لهذا وقفتُ بين هذا وذاك، معتبرا أمستردام عدّاد قياس المجموعة الثقافية والتجارية لتلك البلاد، وبلاد الأراضي المنخفضة هي العدَّاد الكبير الذي يوضِّح الصورة الشاملة لجغرافيا "الإلهة يوروبا" بشكل طردي واضح، ومنه اعتمدتُ هذا المقياس الذاتي لكافة جوانب حياتي كلِّها. قد تجدني استعمل مقياس أمستردام لقياس كافة التجليات على اختلافها، فهو ليس حكرا على الجانب النفسي دون غيره، ولا على الجانب المادي دون سواه، هو يدخل إلى العقول كما يلِج الأرواح، أحاول بواسطته التعبير عن نظرتي الخاصة، أعيد وأكرِّر "نظرتي الخاصة"، التي تلزمني أنا وحدي، فهو مقياس متغيّر، أتبنى عند استعماله مبدأ سفسطة أثينا القديمة، لأكون أنا مقياس العالَم والأكوان جميعا، مِن موقعي الخاص، وبهذا يصبح مقياس

أمستردام تمرُّدا على العقل المنطقي مهما كان منطقه، معتمدا على الزمان والمكان الذي أتخذ فيه حُكما ما على مجال أو موضوع ما، بدا لي مهمّا وقتئذ، بتلك الشروط حتى ولو كانت مؤقتة، سرعان ما ستتغيَّر بتغيّر المقدمات أو المحتويات. مقياس أمستردام هو عقلي الخاص وشعوري الفردي، رأيي الخاص وطبعي المتفرّد أيضا، هو دقات قلبي فقط ونبض ضميري الذي لن تجده عند الآخرين، هو لسان حالي حينما أحزن، وصراخي حينما أتألَّم، هو عالمي حينما أكون سعيدا – اسما على مُسمى – فرحا بما لدي، أو ما حصلتُ عليه بجهدي غالبا، لهذا فأنا عبر مقياس أمستردام لا أمدح ولا أشتم، بل أحاول التعبير به عن الذي بداخلي، مكسِّرا بذلك الأعراف على اختلافها، والأشياء على اعتيادها، هو الأنا أمام الحَدَث، مهما كان تصنيفه، فلا ترتيب يكبحني ولا قيود تجعلني أتردد في قياس أمر ما، مهما كان، بمقياس أمستردام. هذا المقياس (مقياس أمستردام) ضدَّ العمل الأكاديمي، وهو ليس عملا رومنسيا، هو لا يعترف بالحدود والنطاقات، هو مقياس لا يضبط بقدر ما يكتشف، هو برتبة اعتراف لمَن يخشى الحديث أمام ذاته بلا حواجز، سواء كانت أخلاقية، دينية، علمية، فلسفية أو فكرية، أو حتى أدبية، لهذا لا تتوقع أن أرضيك، فهذا غضب

بشوش أنفث شظاياه في وجهك، لعلّي سأجعلك تعيد التفكير والتقييم لما يدور حولك.. أيّها الغالي.

يتاجر الإنسان في كلّ ما يدور من حوله، رغبة في فائدته الخاصة، يتجار في أسرته، عائلته، أصدقائه، زملائه وروحه إضافة إلى أشيائه، يجعل من كلّ ممنوع وسيلة لبلوغ أهدافه إن لزم الأمر، فكافة المبادئ والمعايير هي بلا وزن في ذهن هذا التاجر/الإنسان، وعليه تصبح الفائدة (Benefit) بمقياس أمستردام ذلك المرغوب بشدّة القادر على إسكات العقول والجوارح معًا، ودفعة واحدة، بحيث لا تستجيب الأعضاء ومناطق التفكير سوى لتلك الرغبة المتوحشة، تلك التي تجعل من الإنسان مفترسا، قابل لافتراس كافة ما يدور من حوله، في صيغة حيوانية محضة. عبر التاريخ عمل الإنسان على قضاء حاجاته المستمرة والتي لا نهاية لها، عبر أيامه ومنذ ولادته يسعى الفرد الإنساني نحو إشباع رغباته وهو يحاول قدر الإمكان أن يصل إلى لذّاته، حتى ولو كانت موروثة عن التجمُّع/المجتمع الذي ينتمي إليه، فكلّ ضرورة بالنسبة إليه هي عبارة عن فائدة، إن ما تمكّن من لقفها بالسرعة المطلوبة. يحتاج الإنسان لكلّ شيء، لهذا عمل على تسخير الطبيعة وظواهرها لرفاهيته المزعومة، لفائدته الوهمية، ولذلك

دخل في صراعات لا حدود لها مع القوى الطبيعية، فراح يحفر الصخر، يركب البحر ويقاوم الجاذبية، لعلّه يتمكّن من جنيِ الفوائد المختلفة اختلاف أصابع اليد الواحدة. لم يكتفِ الإنسان بهذا الصراع الطبيعي، بل دخل في مراوغات أخرى، لعلّ أبرزها تلك التي واجه من خلالها جور العاطفة والمشاعر عليه، محاولا تحكيم عقله، عبر تغليب المنطق على اختلاف ألوانه وأنواعه، بل واستعمل الرياضيات وكافة الحسابات من أجل ترويض قلبه وما حوى، وكلُّ هذا لهدف خالص، ألا وهو السيطرة على الألم الذي يمحي أرصفة الطريق التي تؤدي إلى فائدة الإنسان، وبهذا تختلط الشفقة بالضمانات، ليفقد الإنسان بوصلة مصالحه بسهولة. على الصعيد الثقافي عمل الإنسان على مزج مخرجاته الروحية في الأدب والتفلسف، فكانت فوائده في دراسة الظواهر على اختلافها عبر رصدها ومحاولة استغلالها، لِيفوز بعد ذلك بزيادة سيطرته على التيار البشري على تلوّنه وتنوّع طبوعه، لينتقل بذلك من الكون المادي إلى الأكوان والعوالِم الروحية المتناثرة، وبهذا صنع الإنسان لنفسه إمبراطورية نفسية حصينة، جعلته يمتلك بواسطتها العبيد على اختلاف مسمّياتهم، ألوانهم وأنواعهم، مسخرا إياهم من أجل قطف المزيد من الفوائد والأرباح لذاته

وحده. بل إنَّ الإنسان ذاته، قد عمل على تطوير الفنون والعلوم بشكل خاص، ليستخلص المزيد من القوّة، فيبني لنفسه سياجا حصينا من الأفكار والوسائل، جعلته يحمي جيّدا فوائده، بل وأتاحت له الاستثمار في خوف البشرية جمعاء، ليزيد من أرباحه بشكل ملفت للغاية، وهي طريقة بلغت من التوحش ذروته، لأنّ تلك الأرباح وتلك الفوائد، لها رائحة الموت ومذاق الدماء. الفائدة هي العنوان، هذا ما فهمه الجميع – جميع أبناء البشر – ليصبحوا بذلك أسرى أمانيهم وأحلامهم، تلك التي جعلتهم يقدّسون فوائد لا فائدة منها، فوائد وقتية، ظرفية لها مدّة صلاحية محدودة، لتصنع منهم كائنات بلا ضمير، مخلوقات غفلت عن أصولها وكلّ جميل فيها، وراحت تحطّم الأزلي من أجل الزائل، فلا الأزلي تحطّم ولا الزائل صار نعيما، لهذا من المجحف بالنسبة للإنسان في حق ذاته، أن ينسف وجوده عبر استعماله لمفجرات العمق الفطري لديه، لأنَّ لغة الأجسام تختلف تماما عن لغات الأرواح، والكلّ دون استثناء، يجمعون على أنّ الأرواح هي الباقية، تلك الملاجئ التي إمّا تسامح هذا الإنسان اللاهث خلف فوائده فينجو، أو يقسو قلبها فتتعذّر المغفرة وبالتالي يهوي الإنسان المذنب في حق نفسه إلى السحيق، نادما على وقت أضاعه

في جمع هلاكه بيديه وعقله. في لحظة ما من حياة الإنسان، سيجد نفسه تكذب، من أجل الخروج من موقف يبدو له حرجا، من أجل الوقوف على حقيقة ما، من أجل التلاعب بحقائق بعينها أو من أجل استقصاء الغامض من الأمور، ورغم أنّ الشرائع والتشريعات على اختلافها تنذر بعقوبات لا حصر لها، وتحذّر من العواقب الرهيبة للكذَبة والكذّابين، إلاّ أنّ الإنسان يكذب في النهاية. بمقياس أمستردام أجد الكذب (Lying) عبارة عن عملية ذهنية نفسية لإبداء رأي ما، من أجل تسوية وضعية بعيدا عن حقيقتها الجوهرية، وبالتالي فالإنسان الكذّاب هو إنسان انتهازيٌّ يحاول دائما الظهور بمظهر الأبطال، لكن بعيدا عن بذل الجهد وتحمّل مشقاته، وإنَّما يحاول اختصار المسافات وقطف ثمار تعب الأشخاص الآخرين، عبر نسب ما لا يتصل به لنفسه، تبنّي ما ليس له أو نفي كلّ مزاياه المشينة وعيوبه عنه، ليصبح كلامه بلا قيمة لدى الآخرين، بينما هو سيؤسس بقية حياته على هذه الأوهام، تلك التي لا يراها سواه بأنّها حقائق مطلقة، فتجده يسردها ويعيد سردها، كلّما سمحت له الفرصة لذلك، حتى دون أن ينسى أيّ تفصيل من تفاصيلها الكثيرة، وبالتالي: فإنّ المستمع إليها للمرّة الأولى، ودون معرفة مسبقة بهذا الكذّاب المراوغ،

سيصدّق جانبا كبيرا منها تلقائيا، وهنا تكمن مصائب سحر الأوهام على بعض الأفراد من بني الإنسان. الكذب أيضا يُستعمل للتمويه وإخفاء بعض اليوميات أو الأسرار، وهذه العملية بالذات تعتبر مركّبا أساسيا من جزيئات الشخصية المشرقية بالأساس، وبعض الأفراد الغربيين الذين يشغلون مناصب رفيعة متعلّقة بشكل خالص بحساسية الحفاظ على النظام العام، وعليه لجأ الإنسان في حربه التي شنّها ويشنّها على الكذّابين إلى صنع جهاز كشف الكذب، والعمل على تطويره في كلّ حين، إذ يتمّ تصنيف الإنسان الكذّاب في خانة الشرير، أو الداعي إلى الأذى، وأحيانا يتم اتهامه بنشر الجرائم عبر التستّر عليها. من هنا كانت فكرة أداء القَسَم في انعطاف مهمّ، يجعل الديانات تتحالف مع القوانين الوضعية في محاربة الكذب، وهنا يمكنني الوقوف بشكل جاد للغاية على خطورة هذه الميزة التي يستخف بها الناس جميعا، بينما هي من أخطر الميزات المعيبة لأخلاق الإنسان والتي تهدد حياته أو حيوات الآخرين بشكل متعمَّد، فالعدوّ الذي تتحالف السماء مع الأرض لمحاربته يبقى دائما عدوّا خطيرا جدّا. بعض البشر يصنّفون الكذبة ويقومون بتلوينها، فهناك بالنسبة إليهم كذبة بيضاء يجوز إطلاقها ونشرها على سبيل المثال، وهناك كذبة

ليست بيضاء – ولا أدري أيّ لون تتخذه – فالكذبة الملوّنة بألوان ما عدى اللون الأبيض ممنوع التعاطي بها أو معها، فيما هو مسموح لنا الخوض فقط بالكذبة البيضاء. لم يقل لنا أحد كيف نصنّف الكذبة إلى بيضاء أو لون آخر، فاعتنق الإنسان ذاته، وراح يكذب كلَّما قدّر هو وحده حاجته للكذب، مبررا بأنّ كلّ كذبة يطلقها هي كذبة بيضاء وانتهى، بينما بمقياس أمستردام، الكذبة لا لون لها، وقضية اللون الأبيض مجرّد تبرير بشع حتى أنّه أبشع من صاحبه. لم يُمنع الكذب إلاّ بسبب النتائج التي يؤدّي إليها، إذْ الإنسان الكذّاب مجرم لا يختلف عن باقي المجرمين، مجرم في حقّ ذاته أوّلا، في حق تجمّعه/مجتمعه ثانيا، ومجرم في حقّ الحياة أخيرا، لأنّ كلّ كذبة يطلقها هي عبارة عن طعنة خنجر في الجسد الإنساني التاريخي والجماعي، مهما كان وزن هذه الكذبة ومدى تأثيرها؛ الحق والكذب لا يجتمعان، والكذّاب لا يُمكن ائتمانه مهما علا شأنه، لهذا سنجد أنّ هذه الظاهرة تزداد انتشارا، بل تصبح أسلوب حياة، فقط في التجمّعات/المجتمعات البشرية التي لا تزال تغرق في أوحال المصائب الروحية قبل الخراب المادّي؛ مهما طال بال الإنسان، إلاّ ويأتي يوم يصبح فيه خصمًا لإنسان آخر، ومهما تعدّدت الأسباب، فإنّه سيجد نفسه

ضحية لموقف ما، عليه تجاوزه مهما كان، خاصة إن كان الجاني في حقّ الضحية هذه قريبا، غالي على الروح أو عزيزا على القلب، اعترف بالخطأ، وعلى الاثنيْن السير جنبا إلى جنب قصد الوصول إلى منطقة ثقافية محايدة، تلك التي نسميّها بـ: التسامح. إذن التسامح (Tolerance) صفة إنسانية خالصة، تجعل الفرد ينتقل في ارتقاء سامي من الهمجية نحو التحضر، قد يؤدّي هذا الانتقال في حالات كثيرة إلى حقن الدماء، كفِّ الأذى أو السعي إلى لمِّ شمل أفراد مرّوا بلحظات عصيبة للغاية. لكن بمقياس أمستردام يبقى التسامح مثَله كمثَل المسامحة، قلبًا للصفحة دون تمزيقها، قبض على النبض مِن أجل رسم تلك الصورة الجليلة لتلك المعاملات الإنسانية، فما أجمل المسامِح حين يقترب مِن القمّة، ذاك الشعور المتعالي الذي يدفع به إلى إلقاء بخطايا الآخر إلى السحيق، متحمّلاً غضبا استبدّ به، لكنّه قام بهزمه في النهاية، مفضلا طريق السلام على دوام الخصام. ليس من السهل أن تعترف بالخطأ، فضلا عن طلب السّماح مِن الذين أخطأتَ في حقّهم يوما ما، خاصة إن ما كنتَ قد اقترفتَ تلك الخطايا مستغلاً ثقة ضحاياك التامة في شخصك، ضاربا عرض الجدار ما تبقى مِن النوايا الحسنة في الشخصية الإنسانية، لهذا مِن الغريب للغاية ومن

الرهيب موقف طلب السماح بعد الاعتراف، موقف تذوب أمامه الجبال وتخر له الجبابرة ذلاً وهوانا. لقد سامح المسيح عيسى عليه السلام أبناء جلدته بعد عبور درب الآلام، وهو موقف لا يقدم عليه سوى ذو همّة عالية، ولقد سامح النبي محمد عليه الصلاة والسلام مَن قاتلوه من أبناء مكّة المكرّمة، وهي خطوة لا يقدم عليها سوى نبيّ على خلُقٍ عظيم. إنَّه نوع من البذل من أجل الاستمرار، إنّه العطاء من أجل البقاء، سرٌّ من أسرار الحياة، قنديل وسط الظلمات يحاول به الإنسان مغالبة روحه، لعلّه يظفر بمقام عليٍّ بين الصالحين، وبهذا يصبح الفرد الإنساني ساميا يستحق أحد ألقاب النبلاء، علامة فارقة في التاريخ البشري، يجعل القدوة تتجلّى بكامل صفائها أمام العقل المجرَّد، عملية عالية التكاليف روحيا، فلا يجد المسامَح في خضمِّها عزاء كعزاء الأحضان والدموع، يا له مِن وضع غريب، كصفعة على خدّ الأنانية المتعرِّق. التسامح ضمانة للحياة في مواجهة الفناء، استقلال تام للذات الإنسانية عند خوضها معركة صناعة القدوة، هو تعريف شامل لحافز الإنسان الجوهري عندما يواجه الأكوان التي تحيط به، هو نحت لموقع خاص بين أمواج التوحش العاتية، باب من الأمل لا يعرف فتحه سوى القويُّ أمام عمقه،

الصلب أمام ضغوطات الأيّام، اللطيف في مواجهة بني جنسه، هيبة عظيمة بلسان كعب بن زهير أمام خير البشر جميعا. المسامِح هاضم بنعومة لصخرة الأذى، قادر على مواصلة سيره نحو أهدافه بثبات، وهذا ما فهمه الانجليزي تشرشل أثناء مواجهته لمجلس العموم البريطاني، فهم أعماق من واجههم، فسامحهم، وبذلك كسب الجائزة الكبرى وهي عباءة المنتصر في الحرب العالمية الثانية، يا له من انتصار، أي أنّني أمام تأكيد آخر على أنّ هزيمة الذات تقود إلى هزيمة العالَم، مهما كان هذا العالَم قويّا. مَن يتمكن مِن مسامحة الآخر والتسامح معه، بالضرورة والقوة سيتمكَّن من التسامح مع نواته العميقة، الخطوة الخارجية غالبا بلغات الأرواح ما تكون بسيطة سهلة، إن ما قارنتُها بلغة الدخيلة التي تقودُ الصميم الإنساني، فالإنسان يهوى سحق مَن ظلمه أو تحداه، لهذا يبقى التسامح مكبحا في وجه هذه الوحشية المكتومة؛ كلُّ إنسان يتلمّس طريقه نحو الله، بلا تردد وبدون أيّ شك، إذْن إنَها الحقيقة الأصيلة التي يؤمن بها الفرد مهما كانت ثقافته، حتى ولو تعددت الديانات والأديان، المعتقدات والاعتقادات، فإنّ الله موجود في حياة البشر وإن أنكر بعضهم هذا علنا، إنّهم وعندما يعودون إلى أنفسهم، فإنّك ستجدهم

يتواصلون مع خالقهم كلٌّ على حسب فهمه من جهة، وعمق إيمانه من جهة أخرى. بمقياس أمستردام الله (Allah) هو القدرة الشامِلة التي لا تحتاج لأحد أو شيء من أي نوع حتى توجد، بينما تمثل الوجود واللا-وجود معا إن ما تعلّق الأمر بالحياة، وهو الملجأ الأخير للإنسان أثناء الأزمات، بينما يمثّل تلك الصورة الكاملة عن الكون، منبعه ومآله على سبيل بناء وتنظيم كافة المتّصلات ببعضها البعض، فهو الراعي الأوّل والحافظ الأزلي، يحمل صفات لا تُحصى ولا يقترن به إلاّ ما يفوق الوصف ولا يخطر على روح الإنسان، هو اللغز الأعظم والسرُّ الأقصى الذي تخضع له الوجوه وتسجد له الأفئدة طمعا في رضاه، هو السعادة التي لا تزول، القوة الدائمة والأبدية التي لا نهاية لها. الطريق إلى الله وعرة وصعبة على الإنسان، عنوانها ومسارها يلتقيان عند العمل الصادق المقبول في كافة المعتقدات والديانات، وعلى اختلافها تسرد على مسامع الفرد الإنساني قصص النّاجين من غضب الله سبحانه والصالحين الذين فازوا برضاه، فالله تعالى قادر على كلّ ما لا يقدر عليه البشر مجتمعين، ولقدرته مجالات لا يمكن للبشر حتى التفكير فيها، هو الذي أوجد كلّ شيء، وبسهولة لا يمكن وصفها، وهو القادر سبحانه على انتزاع أيّ شيء من أيٍّ كان وقتما

يشاء، قوّة مذهلة لا يستطيع أيًّا منّا ولا أيّ سلاح مواجهتها في أيّ زمن من الأزمان، والدليل على هذا أنّ الإنسان لا يمكنه إيقاف الرياح فما بالك بإيقاف الآمر بها! طبعا لا يستطيع. لن أفتح باب محاولة الخوض منطقيا في هذا الموضوع، لأنّ المسلمين، النصارى، المسيحيين وحتى اليهود، إضافة إلى أتباع ديانات وأديان أخرى غيرها، قد عملوا على هذا المجال، ومن السّهل للغاية على أيّ فكر معقول أو غير ذلك، أن يعالج هذا الموضوع موضوعيا (ذاتيا) وبشكل متساوي المسافة مع الأفكار المرتبطة به، ليجد نفسه يصل إلى النتيجة المعلومة، ولنا في قصص الذين دخلوا احدى الديانات بعدما حاربوها بشكل جاد الكثير من الأمثلة؛ مسألة الألوهية كما نرى هي محسومة بشكل قاطع، فامتدّ الجدل إلى طريقة إظهار هذا الإيمان، وراح المؤمنون لذات الدين يتقاتلون إما حوارا، جدالا أو حروبا "يقتل بعضهم الآخر" في سبيل إعلاء ما يعتقد بسلامته ويتّبعه منذ آلاف السنين، وكم سفكت دماء غزيرة بين الناس، لا لشيء سوى لنصرة تلك الفكرة الدينية أو تلك. بينما الأديان كما الديانات بريئة تماما من أتباعها، وتصرفاتهم الهمجية، فالعائد إلى تشريعات الكتب المقدّسة على اختلافها، سواء السماوية أم غيرها، سيجدها أولى الدّاعين إلى السلام – باستثناء التلمود –

كحالة غريبة، ولا تذكر العنف إلاّ بلباس رفع الظلم عن المظلومين، أو الدفاع عن الروح والنفس معا، ومنه فلا مبرر يوضح استعمال التعاليم المقدّسة كتبريرات لأفعال وتصرفات أتباعها العنيفة أبدا؛ قد نصادف سؤال: ماذا عن الإلحاد؟ وناكري وجود الله والعياذ بالله؟ ماذا عنهم؟ ولما لم ترصدهم في هذا المجال، أليسوا بشرا؟ بلا، هم موجودون ولكنهم مؤمنون من نوع خاص، مؤمنون متمرّدون على إيمانهم، فكلنا يعلم بأنّ الإيمان يا صاحبي ليس وجبة سريعة نبتاعها من إحدى محلات السيد الأميركي، وإلاّ كيف سنفسّر عبادة هؤلاء لأوراق الدولار الخضراء المكتوب عليها "نحن نثق في الله"! أعلم أنّ الأمر محيّر، فالديانات والأديان هي الحيرة منذ بداية الخلْق وإلى الآن، ولكنّ الفطرة الإنسانية هي البوصلة التي ترشد الفرد إلى الله جلّ علاه، مهما خذله مَن هُم حوله. كلّ حيّ مُحبّ بطريقة ما لأمر، إنسان أو شيء ما، الحبُ معبر لابد من المرور فوقه خلال هذه الحياة، فلا يوجد إنسان كما اتصوّر في الحد الأدنى، أن يكون بعيدا عن هذا المستبد ولو للحظات من عمره، فهو يغزو الفرد الإنساني دون استشارته، بلا إذنٍ مسبق ولا حتى تصريح بالدخول، وكأنّه النافذ إلى كافة الأعماق متى شاء، والمُغادر منها متى أراد، فهو سلطان كامل على

الإنسان مهما كانت حالة هذا الأخير؛ الحب (Love) بمقياس أمستردام هو شهقة داخلية تلتف على كافة عواطف الفرد لترميه في الضياع التام، في قاع الفراغ، حيث تتلاشى كافة الحواجز، يتعطّل العقل ويتجمّد التفكير، ليصبح المحِبّ بلا عنوان ولا برهان، لا يعلم ما أصابه ولا يدري بماذا أُبتليَ، غير مدرك لشروط العواصف التي تنتابه، وغير قادر على استيعاب ما يجري له، فهو بهذا المسار جزء من الجنون على قاعدة المكنون، صناعة لا يفقه العاشق طلاسمها سوى عند تذوّقها للوهلة الأولى، فهي قيمة إنسانية تنحتُ من الجمال رقّة وعنفوانا، وتغرف من الأصل عدالة وغفرانا، عمقها متاهة، الداخل إليها مفقود، والخارج منها مولود، وعلى سطحها استفهام ضخم، له هيبة الملوك وشموخ زيوس في لحظة خراب المُباح لكلّ متاح؛ شعور يخسف بما تقف عليه أقدام الإنسان، فيسقط في المجهول ويجد في الألم حلاوة لا مثيل لها، عاطفة تخنق الفرد لكنّه لا يبدي أيّة مقاومة وكأنّه يستمتع بوفاة معنوياته، ملابسات بلا مواقف، عناوين بلا أماكن، أعاصير بلا اتجاهات، قيل في سحره الكثير من أبيات الشعر وقصائد طويلة لها بدايات وبلا نهايات، صميم يلدغ ليشفي وسحيق يجرح ليداوي وسمٌّ يمزق الأحشاء ليمنح الحياة بلون جديد، هذا ما

نسميه بالحب. الإنسان الذي يعيش ويموت دون محبة كغصن شجرة قذفته الرياح إلى الشاطئ ليجد نفسه لعبة بين الأمواج، لأنّ المحبة مرساة للعقل ونشوة للذات، تُعتبر فترة استراحة محارب هزمته الحياة، فهو يرتاح ليستعيد حربه فقط، أمر استثنائيّ إن ما تحدثنا بالعواقب والحسابات، انفجار للمشاعر يفوق ضخامة ما حدث فوق أرض الشمس الساطعة سنة خمسة وأربعين من القرن العشرين للميلاد، ولكَ أن تكمل بلا حرج؛ يُقال بأنّ شرف المحِبّ من شرف محبوبه، فعاشق امرأة ليس كعاشق الكلمات، والمتيّم بالحياة ليس كالهائم بعشق رب الأرض والسماوات، لكلّ محبٍّ طريقة في إبداء ما يخز روحه من محبة ونقاء، ولكلّ حامل للصفاء سبيله الذي يختاره طواعية ليحوّله إلى هدف لقلبه وجوارحه، فالأمر جلَلٌ يا سادتي؛ المحِبُّ أشدُّ ما يخاف منه هو الفقد والحرمان، وسرعان ما يفقد تركيزه كلَّما سلّمت له الأيّام زعزعة شديدة لوضعيته، وقد يصل إلى حدِّ التجاهل وربما يتجاوز هذه النقطة بكثير فيصبح جاهلا تقليديا إن ما شعر بتهديد جاد لعرش العلاقة التي تصله بمحبوبه، وهي حالة من الكُفر بكافة الكائنات والكيانات بضربة واحدة. حلقة الوصل بين العاشق وما يعشقه هي تلك الوقفة الرهيبة الناتجة عن اختطاف الإرادة،

حيث يبني المحِبّ لذاته زنزانة ناعمة، قضبانها من الأحلام، جدرانها من الأوهام، أقفالها من الأسقام وأنوارها الخافتة من الحبر والأقلام، سجن مقفل بإحكام لكافة المحبين والعشاق، يتسع لهم جميعا، بل ويُنادي كلّ مرّة: هل مِن مزيد! ذلك الجرح الناتج عن الحب لا سبيل للشفاء منه، وإن كان الكيُّ آخر العلاج، فإنّ الألم الذي تسببه النار التي تحرق جلد العاشق ليس بإمكانه أن ينسيه مَن أحبّه بصدق وأمانة، فالتاريخ يروي لنا من جولييت إلى ليلى غرائب لا يستوعبها سوى الصادق مع قلبه والمحاور له بوضوح. يُخيّر الإنسان بين العمل والخمول فيختار الكفاح حتى النهاية، لأنّ الخمول مرادف للذل والبؤس، بينما العمل شرف لا نظير ولا مثيل له على الإطلاق، الأمر بسيط والقاعدة واضحة في هذا المجال: إمّا تكون عاملا يحصل على ثمار عمله بجهده الخاص، فارضا واقعا جديدا يضعك في مرتبة السيّد، أو تبقى عبدا لغيرك، عبد لمَن يعمل بجهده من أجل استعبادك: ولكَ أن تختار. العمل (Work) بمقياس أمستردام طريق نحو الاستقلالية والسيادة، نوع من الحرية، سبيل إلى عيش الكبرياء بشكل نبيل للغاية، فالتعب الذي يبذله العامل في أيّ مجال كان، هو الثمن الذي يدفعه في سبيل هذا الاستقلال، هو التضحية التي تغسل

ذلـه وتضـعه في مقدمـة القافلـة، ولا يجـب أن ننسـى بـأنّ القوافـل حـين تسـير، هنـاك الكثير مـن الحيوانـات على حـواف الطرقـات والمسـارات، لا تجـد سـبيلا للتعبير عـن حقـدها سـوى بإصـدار تلك الأصـوات النشـاز، تلك الأصـوات المزعجـة، لكنهـا لا تقـدر أبـدا على ايقـاف قوافـل العـاملين، لأنّ قيمـة العمـل لا تهزمهـا سـوى قيمـة الـذكاء؛ ما أطيـب اللقمـة التي تشـتريها بـثمن عـرق جبينك، ولا ألـذّ النتيجـة التي تصلها بمـا قدّمتـه مـن الـتفاني في العمـل، شـعور لا يضـاهيه أيُّ شـعور آخـر، إذ لا يشـعر بـه إلاّ ذاك الكادح مـن أجـل تحقيـق حيـاة أفضـل، فهي سـعادة مدفوعـة فاتورتهـا سـلفا، ليسـت مجانيـة أبـدا، وكلّنـا نعلـم قيمـة المشـاعر التي نـدفع أثمانهـا الغاليـة. لقـد عملـت الاشـتراكية على انصـاف العمـال، منطلقـة مـن فرضـية بـأنّ البشـر كلّهـم يقدّسـون العمـل ويقومـون بـه، وهـذه الفكـرة بالـذات قـادت الاتحـاد السـوفياتي إلى الانهيـار الاقتصـادي قبـل الانهيـار السياسـي، فـإن كـان كافـة البشـر يقدّسـون العمـل، فـإنّ قليل منهم مَن يعمل بجدّ، بل إنّ معظمهم لا يحب أن يكون عـاملا، ويفضّـل البقـاء خـاملا مـا دام يحصـل على اليسـير ممـا يسـدّ رمقـه، لقـد غفلـت الاشـتراكية عـن الفروقـات الهائلـة بـين العمـال والخـاملين، تلـك الفروقـات التي تصـل إلى مسـتوى الفـرق بـين

العلماء والجاهلين سواء بسواء؛ أمّا على النقيض من ذلك نجد الرأسمالية ترفع شعارات تحفيز العاملين من الناس، الموهوبين منهم والأذكياء، لتمزج بين كلّ هذا الخليط مكوّنة نموذجا جديدا تسميهم بـ: الخبراء، وبذلك اكتسحت العالَم، صانعة طبقات من البشر، الخبير يعيش حياة الملوك والنبلاء، بينما الخامل يموت جوعا وضنكا، وهي محقة في ذلك، فقد أثبتت الأيّام صدق هذه الرؤيا، لأنّ المنظومة الغربية الرأسمالية ازدادت قوة وثراء، بسبب رهانها على العمال والخبراء، بينما ضاعت البقية بين صراعات الشعارات ومحاولة تحقيق المساواة بين الخبير ومصدر الشخير، فكانت النتيجة السقوط في بئر بلا قاع. العمل نوع من القوة، هو بحث عن الرفعة وحفر في أرضية الخبرة تنقيبا عن الابداع، لم يعد العمال يُقاسون بالجهد المبذول، وإنّما صارت النتائج المحققة هي المعيار الثابت للعالَم أجمع، الكلّ في سباق محموم من أجل تحقيق أكبر قدر من النتائج وأجودها، بينما تغرق البقية في نفاياتها التي صارت لا تدرك ما العمل حتى تتمكن من مواجهة المتغيّرات، إذْ صرنا أمام صورة شديدة الحساسية، هناك أقوام راهنت على مجهودات وثمار العمال فهي اليوم تصنع الأحداث، أقوام أخرى تحاول استغلال هذه الأحداث لصالحها عبر بعض

العاملين لديها والتكيّف معها، بينما هناك نموذج ثالث مضحك حدّ الجنون، تلطمه هذه الأحداث يمينا وشمالا، ليصبح مجرّد وقودا لها دون حتى أن يدري ذلك، في شكل قبيح للغباء، لم تعرف البشرية مثيلا له منذ فجر التاريخ. الحرُّ لم يعد اليوم ذاك الذي يصرخ في الشوارع رافعا قماشا ملونا يسميه بـ: الراية الوطنية، بل صار ذاك العامل على ذاته والمطوّر لها، المحقق للنتائج مهما كانت المهمات الموكلة إليه تبدوا مستحيلة، لكنه وبعمله وعقله يجعل هذا الذي يسميه مَن حوله مستحيلا، مهزوما مرتعد الفرائس؛ لكلِّ موتٍ أنشودة يسمع ألحانها كلّ أفراد الإنسانية، لكلّ واحد منهم قدرة على الوقوع في غياهب السقوط، يهجر الحياة في موعد لا يعرفه أحد، ولا حتى مَن يكون بطل ذلك الموعد المجهول، المغادر المعلوم/المجهول، لكن ما هو يقين وواضح، هو أنّ الإنسان مهما كان سيموت يوما ما، وتبقى الطريقة والتوقيت، الأرض التي ستشهد الحَدث ومَن سيحضره، كلها تفاصيل بعيدة عن علم الإنسان مهما كان مجتهدا في محاولة التعرّف عليها. الموت (death) بمقياس أمستردام هو الرحيل، لوجهة مجهولة، إذْ لا أحد من الموتى استطاع العودة إلى الحياة حتى يخبرنا بتجربة الموت، ورغم أنّ الكثير من الديانات والأديان قد اجتهدت في تفسير ما سيحصل

للإنسان بعد الموت، بل وحاولت شرح عملية الموت ذاته، إلاّ أنَّ هذه القضية بقيت مسألة مبهمة على مرّ العصور؛ أمم كثيرة صارت من أهل القبور أو رمادا، شعوب بأكملها صارت في حكم النسيان، كتلة بشرية هائلة رحلت عنّا، عاشت مثلنا، عانت معاناتنا، فرحت ووزّعت الابتسامات أيضا مثلنا، ثمّ حملت أجزاءها ورحلت بلا عودة، رغم أنّها أحبّت الحياة حتى الجنون وتشبثت بها حتى آخر لحظاتها فيها، إلاّ أنَّها رحلت وربما معظمهم رحل عن هذه الأيّام دون أيّ وداع، إنّه قَدَر محتوم يلاحق الجميع دون استثناء، الأغنياء قبل الفقراء، البسطاء قبل العلماء، والرهبان قبل بقية بني الإنسان؛ ما هو مؤكّد أنّ لكلّ إنسان جنازته، لكلّ حيّ طقوسه الخاصة التي ستقوده إلى مأواه الأخير دون قلق، وإن خاف جلّنا من الموت، إلاّ أننا كلّنا سنذوق مذاقه يوما ما، هناك فريق من البشر يحثون على العمل لأجل ذلك اليوم، وهناك فريق آخر من أبناء البشر أيضا يحثون البقية على الاستمتاع بالحياة قبل مغادرتها، أما الفريق الثالث فيعمل على نسيان هذا الموضوع كلّيا خوفا ورهبة؛ لا يستوي الذي يموت وهو يدافع عن مقدّساته مع الذي يموت على فراشه، ولا هو في المرتبة ذاتها من يموت ظالما مع من يموت مظلوما، نعم؛ الكلّ سيموت،

لكن بأيّة وضعية سترحل عن أيّامك هذه، المسألة أكثر تعقيدا من آلية الانتقال من النور إلى الظلام، أو الانتقال من الشقاء إلى الراحة الأبدية. الموت حوار بين الروح والجسم، بين أطراف الجسد، نقاش طبيعيّ بين النقيضيْن، بين المؤقت الزائل والأبدي الأزلي، حوار ينتهي حتميا إلى نقطة الانفصال، تلك النقطة التي لابد من الوصول إليها، ويخشى وصولها معظم السائرين نحوها، ففي هذا الموضوع دون سواه، يمكننا الحديث عن اليقين بثقة مبالغ فيها، التحدّث عن الحتمية بصورة راسخة وشرح الملابسات عن الصواب/الخطأ بلا شك وبعيدا عن الحركة، فالموت جامد يا سادة، والجامِد تجلّي للموت بلغة أخرى؛ يصبح الإنسان في محطة من احدى محطات حياته الكثيرة رافضا للعيش، وفجأة يموت على حين غرّة، ودون سابق إنذار أو تحذير، تحين تلك اللحظة المقدسّة التي يصل إليها كافة الأحياء، فيؤدّي ما عليه على طريقته، ثمّ يغادر نحو المجهول، ليبقى جسما بلا حركة، فذاك الجسدُ الرشيق النشيط الذي كان حيّا قد صار اليوم بلا قدرة على التحرّك، بل إنّه صار جثة تعبث بها أيادي الغير، حيث يحوم حول أحبائه والقريبين منه، الذين أحبوه بصدق بشكل يفوق الوصف جوّ من الحزن، فالأحزان هي حاشية الموت؛ المقابر كثيرة، ربما

مساحاتها تعبّر عن أسرار الأموات على اختلافهم، فالموت عادل يحمل الأسرار ويزور الكلّ، زيارته تلك هي المحكوم المكتوم والمحتوم، الفرق فقط في كيفية التعامل معه، فهناك من ينتظره فيجهّز نفسه لاستقباله، وهناك من يتجاهله حتى يخطفه وكفى. لا يشعر بالسلام سوى الأقوياء، الذين يصنعون كلّ جزء من أسلحتهم، يعملون على تطويرها، وينافسون على الساحة العالمية بكلِّ ثقة، لكي تكون محميا جيّدا، عليك أن تنطلق من ذاتك، تكوّن وتدرّب نفسك، وتحاول قدر الإمكان تحصين ما تملكه، حتى تزرع الهيبة في قلوب المحيطين بك، سواء اقتصاديا أم عسكريا، عندها فقط تستطيع النوم وأنت مطمئن، ولقد صدق الرومان في هذا الموضوع صدقا تامّا. السّلام (Peace) بمقياس أمستردام هو الهدوء بعيدا عن كافة التهديدات، سواء كانت وجودية أو ظرفية باعثة على القلق، وعليه يصبح هدوءً أقرب من السكينة من قربه إلى الطمأنينة، هو عبارة عن راحة أفقية تسري في أيّام الإنسان بالاستناد على ضمانة جادّة، قد أثبتت فاعليتها، ومثال ذلك وسائل الدفاع عن النفس، أو الوسائل الهجومية، القادرة على ترجيح الكفّة لصالحك، فتجعل محيطك يخشى ردة فعلك، أو أفعالك بنسب مختلفة؛ هو مطلب إنساني ضروري من أجل

العيش المشترك، خاصة إن ما اعتبرتُ السّلام مبدأ لا يُبنى سوى على قاعدة الأمن ولوازم الأمان، حيث نجد بأنّ هذه المعطيات، هي أساسات لابد منها لاستمرار الجنس البشري، وبالتالي أحيانا، وبين الحين والآخر، قد نجد دور الحروب فعّالا في إثبات ضرورة القوّة اللازمة، من أجل استعمالها لرسم الحدود النفسية أو السيكولوجية التي تحمي أطراف الروح الجماعية أو الفردية للإنسان أو المرتبطين به، ليس معنى هذا أنني أمجد الحرب، لكنني أحاول الإشارة إلى ضرورتها في عملية الكشف عن القدرات الذاتية أو الثقافية بأساليب عنيفة، حتى تتم عملية زرع خوف رادع في قلوب المنافسين، والهدف هو تحصين الموقع، سواء كان جغرافيا أو ثقافيا؛ هذا باتجاه الغير، أو نحو الخارج، لكن هناك نوع آخر من السّلام، ذلك الذي يحارب الفرد الإنساني من أجل احلاله داخليا، وهو أكثر عمقا ويحتاج لزمن طويل حتى يصل الفرد إلى بلوغه، بحيث أهم شروطه هي محاربة الروح ومحاولة تثبيته على مسار متزن، حتى يشعر الفرد الإنساني بتلك الرتابة المُريحة، وقد يبلغ بذلك مرتبة السمو بحمولاته متجرّدا من أدران البدن المتصلة بالخارج، حتى يجد ذاته قد بلغت ارتقاء روحيا لم يبلغه سواه، وهذه النتائج كلّها ما هي سوى مصبّ لمنبع خوض صراعات

الأهـواء مـن جهـة، ومواجهـة الرغبـات المجنونـة التي تحـرّك الفـرد الإنسـاني باتجـاه الجموح على اختلاف مضـامينه من جهـات كثيرة. معظم البشـر ينعمون بالسـلام الـذي توفره الأسلحة والمدافع، لكن قليل منهم يخسـرون ولا يعرفـون مذاق السـلام الـذي تـوفره طرائق الاقتراب مـن الـروح وترويضهـا، السـعداء هُـم هـذه الفئـة القليلـة جدّا التي جعلت من الحياة معبرا بسـيطا نحـو سلامها الهام والـذي تعتبره جزء أساسـيا لوجودها واسـتمرارها، بحيث هناك فرق كبير بين مَن يسـعى إلى احلال السـلام، ومَن يعمل على التنعّم بالسـلامة، الأوّل فـوز عظيم، بينمـا الثـاني وجبـة روحيـة سـريعة، سـرعان مـا يفقـدها الإنسـان بسـبب ظرف طـارئ. يُرمـز في أدبيـات الإنسـانية للسـلام باللون الأبيض، الحمامة البيضاء كدلالـة على صفاء هذه الحاجة البشـرية، ومع ذلك هناك الكثير من الحروب هنا وهناك، هنـاك الكثير مـن المنافسـات والصـراعات، والغريـب في الأمـر، فـإنّ رمـز أقـوى امبراطوريـة في عصـرنا – القـرن الواحـد والعشـرين – الامبراطورية الأميركيـة، التي تحاول الظهور بمظهـر القـوّة التي ترعى السلام العـالمي، هي ذاتها التي تسـعى إلى البقاء متفوقـة اقتصاديا، عسـكريا، ثقافيـا، علميـا وماليـا، وهي التي تضـع الصـقر ذا الـرأس الأبيـض الـذي يرمـز إلى السّـلام كرمـز لسـلطانها، لكـن لا يجـب أن

نغفل بأنّ هذا الصقر ذاته، يحمل في احدى رجليه غصن الزيتون الذي يرمز إلى الهدنة، وفي الرجل الأخرى يحمل ثلاثة عشر سهما، تلك التي ترمز إلى الحروب التي تباركها الديانات السماوية؛ لهذا أؤكد ثانية بأنّ الرومان قد صدقوا تماما بشأن الحرب والسلام؛ الحياة هي الأيّام، واليوم كوحدة من وحدات هذه الحياة المعدودة والمحدودة أهمّ عنصر في حلقة الزمن، إذْ يجد الإنسان نفسه أمام قدرة لا نهاية، تدفعه نحو محاولة مقاومة هذه الفقرة الأساسية من حياته، استغلالها قدر الإمكان واسترجاع معانيها على قدر ما يمكنه استعماله من سحر لذلك العقل الصغير الذي يسكن فؤاده الجميل. إذن اليوم (The day) بمقياس أمستردام هو الصيغة المتجددة للفرد الإنساني ضمن مسار الزمن السرمدي، هو علاقة متأصّلة بداخله ضمن قطاعات تتشابه لكنها تحمل مكنونات مختلفة الجذور والبذور، حيث تمكّنها هذه الميزات مِن إقامة الحدّ الفاصل بين العطاء والانغلاق، فيقف الفرد الإنساني الحيْ على المسافة صفر من ذاته، وعلى أدوار تتكرّر دوريا، يُسمّى الدور الواحد في الاحداثيات المعلومة والواحدة أيضا بـ: اليوم. تعداد الأيّام في مبادئ المسألة الزمنية هو خاضع لآلية القياس الذي يسمح للإنسان بتفهّم الرقصة الواحدة للأرض في حضرة

الشمس، ليصبح اليوم لحنا منفردا أمام الأداء الجماعي للبشرية بشكل مستمر، قد ينقص أحد أفراد الفرقة حين يحين موعد رحيله، كون أنّ يومه الموعود قد حان ميعاده، لكنّ الفرقة الأبدية للبشرية تكمل عزفها الجماعي الذي يتألّف من تنوّع حاد من حيث الأجناس، الألوان والتباينات اللفظية والأدوار الاجتماعية وحتى الأشكال الثقافية، هي تشريع لتجليّات الصدامات بطريقة لطيفة للغاية، تتعاقب كتعاقب مياه النهر الواحد والتي تستمرُّ عمليا وتقنيا في مسارها نحو المصب الأوحد؛ الممكن في مسارح مواجهة الإنسان ليومه المنفرد هو إمكان برمجة ساعاته، دقائقه وثوانيه عبر إخضاعها للشكل المعهود والمدروس عندما يضع ما يناسبه وما لا يناسبه نصب ذهنه العذريّ، وبهذه الطريقة يستطيع الإنسان فهم النادر من مغزى محاولة إدراك واحتواء ما تسرّب من الزمن، زمنه الذي يعتبر خاصًّا به وحده. الإنسان مسؤول عن يومه مثلما هو مسؤول عمّا يترصّده ويحاول هزيمته، فالأيّام هي الهدايا الخالدة من السماء لبني البشر، متتالية ولكن لا صلات بينها سوى إن ما أراد الإنسان ذاته تحقيق هذه الصّلات الانتقائية بينها عبر سبق الإصرار والترصّد: يومي بريء من سلوكي يا سادة. الوحدة الزمنية لا لون لها إن تحدّثتُ مبتعدا عن مفهوم القدَر،

لأنّها مؤلف خاص بالتفاعل البشري مع الأحداث التي يجهل وقوفه أمام مرآتها، بحيث يتصاعد الجدل العام عن حريّة الإنسان في التصرّف بحيثيات أيّامه، ما دام مسؤولا عنها أوّلا وأخيرا؛ وضع كافة التصرّفات البشرية التي تضمّها دفات حياته، والمكتوبة بشكل يحدده الإنسان ذاته على صفحات الأيّام، ضمن خانة الإجبار، يبعد عن عاتق البشر الشعور بالاختيار وقيمة وجوب ممارسته، وبالتالي ينسلخ الفرد بهذا المعنى عن كافة العواقب المترتبة عمّا اختاره لسبب بسيط، وهو أنّ حضور الإجبار يغيّبُ الاختيار، وتغييب هذا الأخير يدفع الفرد بعيدا عن حسّه الإنساني، الذي يعرّضه لتحمّل نتائج أفعاله، فلا تبقى مبرّرات لوجود الأحكام، القضاة ومؤسسات العدالة أو العقوبات؛ اليومي بالنسبة للإنسان مثل مقطوعة "الراعي الوحيد" الخالدة، فيه نوع من الأنين الذي يضجُّ فرَحا، مصدرا تكافئا غريبا بين الهدوء والصخب، هو قالب معلوم لكافة النقائض والتناقضات من الثنائيات، لهذا بقدر سهولة الإنسان في التعامل معه، يجده هذا الإنسان عينه صعبا للغاية، عند أوّل عثرة تصادفه، ومن هنا تنجلي أمامنا مسألة الذكريات بحلوها ومُرّها، الأماني بيقينها وشكوكها، الكلّ مرصوف على طبق واحد نسمّيه بـ: اليوم؛ يرى

الأوربيون بأنّ هناك يوميْن لا فائدة منهما، الأوّل هو الأمس والثاني هو غدا، لهذا هُم ينصحون بعيش اليوم الحاضر، لأنّ الإنسان هو ذاك القابع بين مجهوليْن، مجهول مضى فلا هو يعرف ما مصيره، ومجهول لم يأتِ بعد، فلا هو مدرك مضمونه؛ رجُل المبادئ، الإنسان المحترَم، ذاك الذي يفرض هيبته على الجميع، أينما يحلّ يجد استقبال الأبطال، وأينما يهمّ بالرحيل يترك خلفه إرثا ضخما من الانجازات والمواقف، محبوب من الجميع، إذ يمثّل الأيقونة/القدوة التي يمكن للجميع الاقتداء بها، رجُل مختلفٌ تماما عن بقية الرجال، أو امرأة مميّزة بالكامل عن نساء الأرض، بشر من نوع خاص، هذا ما يجعلنا نتساءل عن أهميّة المبدأ في حياة الإنسان بشكل عام. المبدأ (The principle) حسب مقياس أمستردام هو تلك القاعدة الأخلاقية الثابتة والمتعارف عليها إمّا سرّا أو علانية بين كافة أفراد المجموعة البشرية الواحدة، شعب واحد أو الإنسانية بأكملها، وبموجب هذا العُرف الذي قد يتحوّل في حالات كثيرة إلى قانون خاضع للثواب والعقاب، يصبح من الواجب على الأفراد التحلّي بتلك الصفة الأخلاقية/القانونية من جهة، والاحتكام إلى هذا المبدأ الصارم من جهة أخرى؛ المبادئ ظهرت منذ ظهور الإنسانية إلى الوجود، فما دام الكائن البشري

محافظا على الصفات الأخلاقية، تلك التي نسمّيها بالمبادئ، فإنّه سيبقى قادرا على الحفاظ على الحضور العملي والفعلي لإنسانيته خلال حياته، وبالتالي يمكننا القول بأنّ اتخاذ سبيل المبادئ طريقا إلى السعادة، لهُو أشرف الطرق لتقمّص رداء النبلاء؛ لكن مع توحّش الرأسمالية وظهور السوق المالية العالمية في نيو – أمستردام (نيويورك حاليا)، تحوّلت البشرية من الإنسانية إلى الأنانية المفرطة، وصار المبدأ الراسخ والموجّه الوحيد المشترك بين كافة المنخرطين تحت جناح النظام الغربي هو: المصلحة، مهما كانت الوسائل المتاحة وغير المتاحة التي تعبّد الطرق للوصول إليه، هذه العقلية الجديدة الخاضعة لهذا المبدأ الجديد "المصلحة الفردانية" مسح بشكل نهائي صفة الأخلاقية عن المبادئ البشرية الراهنة، وجعل الإنسان الغربي أو المتغرّب سجينَ الموضة ومشتقّاتها، وبالتالي قد أدخلت هذه الحياة الجديدة الإنسان الميّت إلى زنزانة قضبانها من ورق، فهي مصنوعة من الدولار غير المكفول بالذهب منذ سبعينات القرن العشرين؛ هذا المبدأ العالمي الجديد أنتج جيل الحرف "الزاي – Z"، الجيل الذي راح ينزوي بشكل أعمق وينعزل بشكل مخيف، الجيل الذي صارت القيمة لديه مرتبطة بمدى حضور الكثرة في حياته إلى حدّها

الأقصى، كثرة العلوم، كثرة المعارف، كثرة البشر، كثرة الكذب، كثرة المقتنيات وكثرة الدولارات، جيل تائه بين أمواج رقمية بلا شطآن، يحاول نحت مساره الخاص نحو مصلحته الخاصة، هذا الدين الجديد الذي جعل من الكهرباء كنيسته الجديدة، ومن البشر سلعة معروضة بالمجان أمام هذا الاجتياح المخيب للتاريخ، الحضارات، الثقافات، الأخلاق والمبادئ، الإنسانية والفلسفات، ألم يصبح همُّ رئيس الدُّول المتّحدة لأمريكا الشمالية مثلا (أقوى رجُل في العالَم الحر) الأكبر هو قضية تناقص عدد متابعيه على موقع التغريد العالمي "تويتر"، فجمَع مستشاريه في البيت الأبيض، وراحوا يدرسون هذه القضية "العالمية" العميقة خلال القرن الواحد والعشرين؟ كلّما كان العدد الكمّي كبيرا كان لكَ قيمة تتطابق مع أرقام هذا العدد، لم يعد الناس يولدون لا أحرارا ولا سواسية، لأنّ المولود على الأراضي التي تتحدّث الإنجليزية له أحقيّة الأرض وميزاتها، اللسان والقوّة مقارنة بالمولود على الأراضي التي تتحدّث لغة أخرى، لقد هزمت لندن العالَم، محوِّلة حدود الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس من الحدود الأرضية إلى الحدود المعنوية، وها هي تغزو العالَم بأسره تحت ستائر متنوّعة، أهمّها التجارة وسلطان العلوم التجارية، السياسية/الدبلوماسية

وحتى علوم الطاقة والدفاع، إنّ جيل حرف الزاي قد فُرضت عليه الهزيمة والخضوع لروما الشمالية حتى قبل أن يصرخ أولى صرخاته في هذه الحياة. مبدأ المصلحة الفردانية التي تحارب به لندن بقية العالَم، يقابله مبدأ التكافل الإسلامي الذي يرى بأنّ المسلم لا يكون مسلما حتى يحبَّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، وما دامت روما الشمالية قد استعبدت العالَم بفكرة التوحّش الفرداني، فإنّ مقاومتها لا تكون سوى بفكرة العشق الإنساني.

د. مزوار محمد سعيد

ويست ميدلاندز – المملكة المتحدة